كتاب الجيب

ويليام هُبين

سورين كيركيجارد

تصوّف المعرفة

ترجمة : سعاد فركوح

أزمنة

مكتبة الفكر الجديد

من كتب
عبير الربيعي

سورين كيركيجارد
تصوف المعرفة

مكتبة
الفكر
الجديد

هذه ترجمة الفصل الأول من كتاب

William Hubben

Dostoevsky, Kierkegaard, Nietzsche, and Kafka

Four Prophets Of Our Destiny

الذي صدرت طبعته الأولى عام 1952. ولقد اعتمدنا الطبعة التاسعة

الصادرة عام 1979، عن Collier Books. New york

سورين كيركيجارد: تصوف المعرفة

وليم هُبين: ترجمة : سعاد فركوح

الطبعة العربية الأولى : 2011

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق ©

أزمنة ®

أزمنة للنشر والتوزيع

تلفاكس : 5522544

ص.ب: 950252

شارع الشريف ناصر بن جميل ، عمارة رقم 55 ، ط4

E.MailLinfo@azminah.com

info@azminah.net

Website:http://www.azminah.com

حقوق المترجم محفوظة ، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر .

تصميم الغلاف: أزمنة (إلياس فركوح)

الإخراج الداخلي : ازمنة (نسرين العجو ، إحسان الناطور)

الطباعة : شركة الشرق الأوسط/ عمّان

تاريخ الصدور : كانون الثاني/ يناير 2011

مكتبة الفكر الجديد

وليم هُبين

سورين كيركيجارد

تصوف المعرفة

ترجمة : سعاد فركوح

أزمنة

مكتبة
الفكر
الجديد

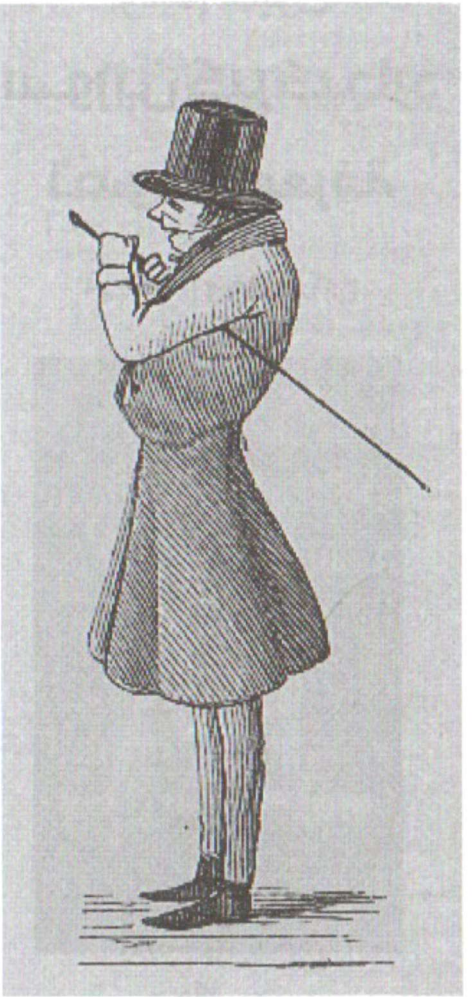

مكتبة
الفكر
الجديد

«الحق قوة، لكننا لا نراه هكذا إلاَّ في حالات نادرة لأنه حق: يتألم دائماً ويجب أن يُهزم طالما هو حق. أما عندما ينتصر هذا الحق فنرى الآخرين ينصتون إليه. لماذا؟ ألأنه حق؟ لا، فلو كان لهذا السبب لانضموا إليه عندما كان يتألم أيضاً. ولهذا فإن عدم انضمامهم إليه ليس للقوة التي يمتلكها. إنهم ينضمون إليه بعد أن يصبح قوة لأن الآخرين يكونون قد سبقوهم لذلك.»

سورين كيركيجارد SOREN KIERKEGAARD

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

1

اعتاد صبية شوارع كوبنهاجن أن يصيحوا وراء سورين كيركيجارد مرددين عبارة «إما ـ أو EITHER-OR» ، وهي عنوان لأحد مؤلفاته ويتكون من مجلدين اثنين. أما صحيفة كوبنهاجن الساخرة «القرصان ـ The Corsair» فقد نشرت ضده، وبالإضافة إلى مقالات تخلو من الشفقة، مجموعة رسومات كاريكاتيرية تصوره بحالات مختلفة أبرزها أحدب؛ تسلُّطي؛ ومتفرِّس في النجوم نحيل الساقين؛ وفارس أخرق يمتطي بُراقاً (ملكة الشعر) وظلٌ يقف في مركز كونٍ مشوش؛ وديكٍ بقبعة عالية تنقنق حوله دجاجات بقبعات عالية مماثلة. وفي كل مرة لم تكن هذه الرسومات الكاريكاتورية تخلو من نقدٍ لاذعٍ ساخرٍ. وكانت كوبنهاجن، باريس الشمال الأروبي الصغيرة، تستمتع بهذه القصص والصور.

مكتبة الفكر الجديد

وأصبحت ساقا كيركيجارد النحيلتين كما أصبح بنطاله المكرمش مضرباً للأمثال. ولم يكن هناك من مُعارضٍ لهذه القسوة أو «المؤامرة السلبية» ضده، كما دعاها كيركيجارد نفسه. أما جولد شمدت، المحرر الذكي لصحيفة «القرصان»، فقد رفض تقديم أي اعتذار أو تراجع عن موقفه العدائي هذا. إلا أنه ـ وبعد أن انتهت علاقته بالقرصان كتب يقول : «إن كيركيجارد كان أحد أعظم العقول التي أنجبتها الدنمارك» وكان قد مضى على وفاة الأخير ستة أيام فقط.

وتُعزى هذه الحملات الموجهة ضد كيركيجارد، جزئياً، لردة الفعل عند الطبقة الوسطى الراضية عن ذاتها والجاهلة لوجود عبقري ذي ثِقل مثل كيركيجارد. فلم يكن بمقدور سكان كوبنهاجن أن يتصوروا أن رجلاً غير عادي كهذا يمكن أن يبرز في هذا الجو الرصين، جو مدينتهم الهادئة. فلقد رأوا في كيركيجارد تهديداً للنظام الذي أحبوه واعتبروه خالداً. فنرى هانس كريستيان آندرسون ـ Hans Christian Andersen يصف هذا النمط المحبب من الحياة بتميزٍ خاص في إحدى قصصه عندما يقول، «كانت أشعة الشمس متوهجة وقد دعت أجراس الكنيسة الناس للتجمُّع.

مكتبة الفكر الجديد

فارتدوا أبهى حللهم، وذهبوا إلى الكنيسة متأبطين كتب الصلاة ليستمعوا للقسيس.»

كانت موجة الثرثرة وترويج الإشاعات كفيلة بتغذية خيال روّاد الكنيسة الصالحين هؤلاء، وبخاصةً في إحدى المشادات الكنسيّة العنيفة . وتقول الشائعات إنه كان على كيركيجارد أن يموِّل منشوراته بنفسه، وأنه عاش علاقة حب مأساوية انتهت بفسخ الخطوبة. ولم يكن من شك أن شخصية سورين كيركيجارد الغريبة هذه قد تجاوزت الحدود المرسومة، فكان مصيرها مصير عبقري غير معترف به ، واستمر هذا المصير حتى النهاية المُرة. فقبل موته بقليل كتب بأسلوب نبوي، مدفوعاً بسببٍ وجيه، قائلاً: «لقد توصلت لمعرفة شيءٍ واحد معرفة يقينية ألا هو: فقدان الإنسان، والشكل عميق جداً، لشخصيةٍ متميزة. ولكن ، كم هو محزن، أنه لا يزال لديَّ بعضٌ من الصدق. ولذلك؛ فبعد موتي سيثني عليَّ الجميع لدرجة أن الشباب سيعتقدون أنني كنت محترماً في أثناء حياتي بل مبجلاً أيضاً. وهذا ، أيضاً، جزء مِن التحوُّل الذي يعاني منه الصدق... في الواقع. إن معاصريَّ الذين تصرفوا بحقارة سيستغلّون لحظة موتي ليقولوا نقيض ما قالوه البارحة، وهكذا سيصبح كل شيء غامضاً ومضطرباً وملتبساً.

مكتبة الفكر الجديد

2

كان للفوضى الظاهرية والصفاء النبوي، بحق، تأثير كبير في تكوين خلفية حياة كيركيجارد بكاملها. فلقد عاش سورين كيركيجارد في الفترة الواقعة بين الأعوام (1813- 1855) وهو أصغر الأبناء لعائلة كبيرة. فأبوه بيدرسن مايكل كيركيجارد Pedersen Michael Kierkegaard كان في السادسة والخمسين عندما ولد سورين. أما والدته فكانت في الخامسة والأربعين. كان الوالد تاجراً ناجحاً وكان يسود البيت جو من الراحة والولاء الشديدين للكنيسة والدين ، إضافة إلى كآبة مقبضة للنفس. أما مايكل كيركيجارد الأب فقد ترعرع بين فلاحي مروج أراضي الجوتلاند السبخة Jutland القفراء حيث انتشر واعظو مورافيا

مكتبة الفكر الجديد

الذين استفزوا الشعب ببعث ديني قريب لدرجة أن الجميع ، حتى الأطفال، كانوا يرزحون تحت شعور كبير بالإثم ويتمنون لو لم تلدهم أمهاتهم. فلقد أمطر الوعاظ أسبوعياً الناس بالعِظات التي تتكلم عن عذاب جهنم ليتجه أولئك الفلاحون المساكين إلى الفضيلة وليفزعوا من الشر وينالوا الجنة ثواباً لذلك.

كانت مفردات تلك الساعات المظلمة قد نُقشت بعمق في عقل الشاب مايكل، فلا عجب أنه، بعد تعلُّمه لـ «الجروح المقدسة والدم الطاهر» ، وأن «جهنم مرصوفة بجباه رعاة الكنيسة الخطاة» وأن الشباب هم «أطفال الشيطان ذاته»، لعن ذات يوم، كان يرعى فيه الغنم، إله الغضب المخيف ، الذي لم يسمح لأي شعاع من أشعة الشمس أو المرح ان يدخل حياته الفتية. ولقد أدت هذه اللعنة ، فيما بعد، إلى نشر ظلال قاتمة على حياته؛ إذ لم يصفح مايكل أبداً عن نفسه هذا التجديف. وهكذا، فمنذ تلك اللحظة وحتى وفاته، وهو في الثانية والثمانين من العمر، لم تظهر ابتسامة واحدة على وجهه إطلاقاً.

كان سورين الصبي يحضر المناقشات التي لم تكن تنتهي بين الوالد وجيرانه. أما الأب مايكل فلم يكن رجل أعمال ناجح فقط

مكتبة الفكر الجديد

بل قارئاً ذكياً لكتب اللاهوت. وكانت أساليبه التربوية الجافة تحتم على الأطفال البقاء داخل البيت. وقد تعلم سورين خصوبة الخيال أثناء «رحلاته» الطويلة داخل غرفة المعيشة حيث كان الأب وابنه يسيران وهما يتظاهران أنهما يقابلان معارف في الشارع، فيصفان منازل وأشجاراً وأشخاصاً وهميين، ويخفضان صوتيهما وكأن صرير عجلات العربات المارة بهما قد أغرقت الأصوات ، أو يعلّقان على محصول سوق فاكهة خيالي. أما عالم الخطيئة والذنب فكان حقيقياً لدى سورين حتى أنه كتب فيما بعد يقول: «كنت منذ الطفولة وفيما بعد في قبضة كآبة مسيطرة... كان فرحي الوحيد، حسب ما أذكر، في ألا يكتشف أحد مدى التعاسة التي كنت أشعر بها... لم أكن رجلاً أبداً، ولا حتى بدرجة أقل طفلاً أو حتى شاباً.»

أخذه والده عدة مرات ليستمع لعِظات الأسقف الشهير مينستر Mynster. لم يكن ثمة شك في أن خلاص روحه كان أهم ما يدور حوله تفكيره وحديثه، كما أن طهارة روحه أصبحت المسعى الأكثر جدية في حياته فيما بعد. ولمدة سنوات كانت ذاكرة سورين عن والده ممتزجة بصورة الله نفسه؛ ولذا فإن اعترافات الرجل العجوز

مكتبة الفكر الجديد

اللاحقة عن مبالغاته الجنسية، كانت «الزلزال الكبير» (1835)، إذ أنها صعقت سورين وردته عن تبجيله لأبيه الأرضي مثلما مزقت تعبُّده للأب السماوي. فلقد شعر بالخزي الشديد لسلوك والده ورأى أن عليه هو، منذ تلك اللحظة فصاعداً، أن يقترب من والده «عكسياً مشيحاً بوجهه بعيداً لئلا يدع عينيه تريان عار ذلك الوالد»، مثلما اقترب أولاد نوح من أبيهم السكران العاري.

يبدو أن لعنة الخطيئة بقيت معلّقة فوق رأس الرجل العجوز وعائلته: فلم يعش من أبنائه سوى بيدير كريستيان Peder Christian الابن الأكبر وسورين الابن الأصغر. أما زوجة مايكل، والدة سورين، فقد كانت خادمة عند الأب قبل أن تصبح زوجته الثانية، وبقيت شكلاً مبهماً يتحرك كالظل، فلم يتكلم عنها سورين أبداً بل ظل على صمته المطبق بشأنها.

وكطالب جامعي كرَّس سورين نفسه لدراسة اللاهوت أولاً، ولكنه تحوَّل سريعاً إلى دراسة الأدب والفلسفة، فعاش حياة مفكر بوهيمي. وبأسلوب معاصريه مجَّد سورين عقل الإنسان وقدرته على التفكير والتعليل والجدل واعتبرها أنسب الأسلحة للحياة. وحيث أنه لم يواجه هموماً مالية، لم تبدُ الحياة سيئة حينها، ولم يكترث عندما

مكتبة الفكر الجديد

كانت تتجمع عليه ديون كبيرة؛ فقد كان والده يقوم بسدادها عنه .

جاء التغيير الكبير لدى سورين عند فسخ ارتباطه بريجينا أولسن Regine Olsen خطيبته الجذابة الجميلة التي كانت «خفيفة كالطير وجريئة كالفكرة...» كان سورين قد قابل ريجينا وهي لم تتجاوز الخامسة عشرة من العمر، وبعد مضي سنتين على خطوبتهما، أي في عام 1841، أعاد خاتم الخطوبة لريجينا الحزينة ومعه هذه الكلمات: «يعني هذا في الشرق الموت لمن يستلم الحبل الحريري، أما في حالتنا هذه فإن أرسال الخاتم يمكن أن يعني الموت لمرسله.» لقد أحيطت هذه الخطوبة بالكثير من الغموض. هل لأنه افتقد دفء الأم وحبها احتاج إلى صورة العذراء ـ الأم المتمثلة في هذه الملكة ريجينا* والتي استمر يعبدها؟ هل كانت العزوبية أحد النذور التي لا غنى عنها لكهنوته غير المرسوم، وهي بحد ذاتها رفض لإلغاء لوثر لها؟ هل اعتبر ريجينا امرأة سعيدة خفيفة الروح وبذا لم يجد فيها القدرة على تحمُّل سوداويته واكتئابه؟ الا يحتمل أن تكون روحه الشعرية غير قاردة على مواجهة الحقيقة والانضمام

* Regina تعني الملكة باللغة اللاتينية والإيطالية والرومانية .

مكتبة الفكر الجديد

إلى eros* و agape** في الزواج؟ هل كان الزواج حل الطبقة الوسطى المريح والمناسب؟ إن حقيقة كونه قد أحب ريجينا أولسن منذ اليوم الأول لمعرفته بها وحتى النهاية، أحبها كانعكاس شعري لذاكرته وكسراب جميل أكثر من كونه قد أحبها ككائن حقيقي، يمكن أن يكون هذان الأمران قد جعلاه غير قادر على الزواج منها، كما يعتقد أحد محللي شخصيته، رغم أنه كان ينظر لنفسه على أنه إنسان شهواني بدرجة غير طبيعية. فهل كانت خطيئة جنسية ارتكبها في سني حياته الأولى هي تلك «الشوكة في الجسد» التي كان يتكلم عنها باستمرار؟ ام لربما كان فسخ خطوبته أحد أنواع سلوكه الانتقامي، من المجتمع ومن ذاته. وهكذا أحب أن يكتب عن شعوره دائماً بأنه خاطئ أمام الله مما دفعه ليتصرف تصرفاً خاطئاً تجاه خطيبته أيضاً؟ لم يتوقف سورين لحظة واحدة عن حب ريجينا وقد سببت خطوبتها اللاحقة من فريتز شليجل Fritz Schlegel ومن ثم زواجها منه اكتئاباً حاداً له.

لدينا عدة إجابات عن التساؤلات هذه، ولكن يبدو أن المحللين

---

* Eros تعني آلهة الحب عند الإغريق.

** Agape واحدة من عدة كلمات يونانية قديمة لعدة أنواع من الحُبّ، وإحداها باتت محصورة في المعتقد المسيحي بحب الله والمسيح للإنسان.

مكتبة الفكر الجديد

النفسانيين والمؤرخين ودارسي الطبيعة البشرية لم يتمكنوا من كشف القناع عن الغموض في حياة سورين كيركيجارد الخاصة، حتى هو نفسه بدا مندهشاً عندما كان يعاني من الآلام العظيمة لكي يبقي هذا الغموض على حاله. لذا، فإن أسلم الاستنتاجات تبدو في أن حياة الروح هي مهمته المسيطرة، ومن أجلها كان عليه أن يضحَّي بكل شيء آخر، فشعر أنه مطالب بالقيام بـ «الشيء غير العادي». ولكن حقيقة كونه كاتباً ومسيحياً ضاعفا من عدم قدرته على الانسياق وراء اشتياق القلب، فأضيفت بذلك ذكريات مؤلمة أخرى إلى نفس هذا الخاطئ النادم.

إن هذا الفاصل المأساوي الذي جاء بعد ثلاث سنوات من يقظته المفاجئة لحقيقة قرب الله منه والتي أدركها من تجربته لـ «الفرح الذي لا يوصف» (1838)، ولوجوده التافه كإنسان متوحد يبحث عن الحق، وللاعترافات العديدة المكشوفة أو المقنعة الموجودة في كتاباته، وللمأساة الكامنة في اضطراره إل تحمُّل عداء العامة له، سيبقى كل هذا على الدوام أرضاً خصبة لاكتشاف كُتَّاب السيرة وعلماء النفس. ومن المحتمل أن يبقى غموض هذا العبقري مجالاً لا يمكن اختراقه بالنسبة للآخرين كما بقي مصيره لغزاً لا يمكن إيجاد تسفير له حتى عنده هو .

مكتبة الفكر الجديد

اعتاد سورين في يومياته أن يدعو نفسه يانوسJanus*ذي الوجهين: الضاحك والباكي، وكشاب يافع في الخامسة والعشرين كتب يقول «أنا، أيضاً أحمل الشكلين المأساوي والكوميدي داخل ذاتي: أنا ذكي أُضحك الناس ولكنني أبكي.» وقبل ذلك بعام واحد تحدث في يومياته عن ممارسته «الانتقام من العالم» عن طريق تمثيله للبهجة لكي يُعزِّي الآخرين، بينما يخفي قلقه الذاتي داخله وهو يقول بأمل: «إن استطعت الاستمرار في هذا السلوك حتى آخر يوم من حياتي، سأكون قد حصلت على الانتقام لنفسي.» لقد عانى حقاً من شعور بالقلق عظيم كالمحيط، هذا الشعور يدعونه في علم النفس الحديث الإحساس بقلق وترقب في الذات الداخلية، وهو لا يُسعَف أو يُخفف. ففي مدخل ليومياته المؤرخة في عام (1839) نقرأ: «عندما أكون وحدي في زورقي الجليدي كمواطن جرينلاندي من الاسكيمو، أطفو على سطح محيط العالم الشاسع، وأمضي الوقت فوق المياه تارة وتحتها طوراً آخر، واضعاً ذاتي بين يدي الله دوماً، وعندما يخطر ببالي أن أصيد بحرية كبيرة وحش البحر في اللحظة المناسبة... لا أملك المهارة للقيام بهذا.»

* Janus يانوس هو إله الأبواب والبدايات عند الرومان.

مكتبة الفكر الجديد

فلم يكن كيركيجارد صياداً ماهراً مثل الكابتن آهاب ـ Captain Ahab لكي يهاجم الحوت الأبيض موبي ديك ـ Moby Dick الذي يمثل الشر . فكان ملجأه الروحي هو تلك السوداوية التي طالما انتابت والده وانتقلت إليه: «ما يقوله الإنجليز عن بيتهم ، يجب أن أقوله أنا عن حزني؛ فحزني هو قلعتي» (1839) .

مكتبة الفكر الجديد

3

تحاول الدراسات الحديثة إعطاء أهمية خاصة لعاهة كيركيجارد الجسدية فتبرز حدبته. وقد خصص ريكارد ماجنوسين Rikard Magnussen مجلدين لبحث الغموض في مظهر كيركيجارد، مستنتجاً مما توصل إليه أن حدبته كانت هي نفسها «الشوكة في الجسد» التي يتكلم عنها ببلاغة والتي أثارت تساؤلات عديدة أخرى. أما ثيودور هاكير Theodor Haekker الخبير الكاثوليكي الألماني والمتخصص في كيركيجارد، فقد بنى دراسة حديثة ومطولة على هذه «المكتشفات»، واستغلها بشكل ميتافيزيقي ، كصليب وهبه الله ليحمله الكاتب الدنمركي يبدو أن كيركيجارد كان من النوع الغليظ كما كان تأثير الحدبة على عقله قد منح إيحاءً لاذعاً لصورته الجانبية النفسية. لكنه يصعب علينا رؤية

مكتبة الفكر الجديد

السبب الذي دعا أعداءه المعاصرين للتكلم على حدبته (عدا رسم كاريكاتيري إيحائي أو رسمين)، كذلك لا نعرف السبب الذي دعا ريجينا أولسن التعسة لتستمر في حبها الملتهب له حتى بعد فسخ الخطوبة. فقد كان ضعيفاً وعليلاً ومن المحتمل أنه اقتبس من عجزه الجسدي الشجاعة الظاهرية ذاتها التي ميزت أيضاً ديستويفسكي ونيتشه. ولكن مهما كانت حقيقة حدبته ، فإنه يبدو من الأسلم لنا أن نبقى متحفظين تجاه أي تفسيرات نفسية أو دينية.

إن الانطباع الذي تتركه الرسومات المتعددة لوجه كيركيجارد في نفس القارئ تراوح بين أسارير شاعر مستغرق في التفكير وعَلاَّمة منطوٍ على نفسه. أما رسم بي.سي.كلاستراب P.C. Klaestrup التخطيطي لسورين ذي التسعة عشرة عاماً فهو مروِّع للغاية. فعينا كيركيجارد الواسعتان اللتان توحيان أنه واقع تحت تأثر التنويم المغناطيسي ، وفمه الحاد، وجبهته العالية، كل ذلك يجتمع سوياً لينقل شيئا من توهج أفكاره المتقدة كما أن من المحتمل ألا نعرف أبداً أي من هذه الرسومات هي الأكثر صدقاً.

هناك أسرار خفية أخرى تتعلق «بالشوكة في الجسد» عند كيركيجارد . ولكن، هل يمكن أن يكون لسيرته الذاتية التي تتعلق باتصاله الأول والوحيد بالبغاء تأثير في قصته القصيرة التي

مكتبة الفكر الجديد

تعالج همّ أعزب وحيد يعتقد أنه من المحتمل أن يكون أباً لطفل غير شرعي؟ فإن صح هذا، فإنه يعني إمكانية إجراء مقابلة أخرى ممتعة بينه وبين نيتشه الذي مر بخبرة مشابهة في مدينة كولون. فهل كان توبيخ الذات الذي لا يمكن التخفيف منه عند بطل القصة الحزين هو تلك «الشوكة في الجسد» ذاتها؟ لم تتوفر في القرن الماضي أية تبريرات فرويدية يمكن استخدامها كأعذار له، كما أن العبء الثقيل حول فلسفة الخطيئة عند البروتستانت كان كافياً لسحق كيركيجارد، الإنسان المرهف الإحساس الباحث عن صفاء القلب؛ فإن كانت هذه الحادثة صحيحة، فهل يمكن أن يكون ذلك قد حمله على القبول باعترافات أبيه أولاً على الإذعان لأبيه الإلهي فيما بعد؟ من المحتمل ألاّ نتوصل أبداً إلى معرفة الحقيقة، فغموض العبقرية ينبغي أن يمنعنا من تعليق أهمية كبيرة جداً على الأحداث في حياته وعلى التفاصيل في مظهره. ومن المحتم أن تبقى محاولة تفسير مهمة تبشيرية لعبقري مثل كيركيجارد وإرساليته الدينية عن طريق سيرته الذاتية غير وافية، فرسالته الدينية هي رسالة كونية وطرق الروح تفوق تصنيفات علم النفس كما تعلو عليها أيضاً.

مكتبة الفكر الجديد

4

أن يكون كاتباً هو فخرٌ لكيركيجارد كما أن ذلك شَكَّلَ عبئاً عليه، ولقد عبَّرت الوجوه المتعددة لشخصيته الغريبة عن نفسها بتألق كبير في عمله. فقد تكلم بلغة الشاعر والعلاَّمة والمثير لغواية الفتيات بل أقرب إلى اليأس والأستاذ في علم الأخلاق؛ وكان مرحاً وذكياً لمّاحاً لكنه كان حزيناً وأقرب إلى اليأس أيضاً؛ كان محارباً عاطفياً ومراقباً للآخرين ولنفسه غير متحيِّز، كان لا شيء بصرف النظر عن أي شيء آخر. وكمثل الرجل الذي به مس من شيطان في مَثَل خنازير غدارين كان «متعدداً» خلال المرحلة الأولى لكتابته، ويمكننا القول إن أحد الأمور الغامضة في حياته هو أن التوترات التي تكاد لا تُحتمل لم تتفجر عنده في فوضى تامة تؤدي به إلى جنون عقلي .

مكتبة الفكر الجديد

إن عبقريته المتعددة الجوانب والخارقة للطبيعة قد عبَّرت عن نفسها بتنوعات متألقة في أسلوبه. فكانت في كل مرة تتكيف بإبداع في المعاني الإضافية التي ترغب في التعبير عنها. فعندما يجعلَ الإنسان العاطفي فيه المثير للفتيات يتكلم تكون مفرداته عفوية ومقنعة؛ أما كلمات الزوج المخلص فهي واضحة وحازمة؛ وينتشر النغم الكئيب لسوداويته لحناً حزيناً؛ نشواته الدينية معدية حقاً؛ أما مزاحه الأنيق فهو من النوع البارع الرشيق؛ وهجومه الناقد اللاذع على الكنيسة ورجال الدين يحشد القارئ في موالاة انفعالية قوية؛ ومواعظه تتكلم حتى عن ظرف الرجل المعاصر بشفقة لها سلطة الإنجيل. وأخيراً، عندما يرغب في أن يكون لا شيء من هذه الشخوص ويقف موقف الناقد المتشكك، نراه ينقل لنا سيماء التفوق المقنع لأن تفوقه يبرز ليس من الشكّ وإنما من إيمان عميق مكتسب حديثاً

كان كيركيجارد واعياً لهذه التناقضات داخل ذاته، ومدركاً أن ما بين سوداويته وذاته الحقة يوجد «عالم من الخيال الجامح الذي عبَّرتُ عنه جزئياً من خلال أسمائي المستعارة». فعندما نشر كتابه الذي يحمل العنوان «أوراق شخص لا يزال حياً Papers of One Still Living» (عام 1838) ، أضاف ملاحظة يقول فيها إن هذه

مكتبة الفكر الجديد

الأوراق قد «نُشرت ضد إرادة صاحبها والمسؤول عن نشرها هو س.ك.» إن هذه الملاحظة ترمز بالتأكيد إلى صراعه الداخلي. أما كتاباته خلال المرحلتين الأوليتين في حياته، أي: المرحلة الجمالية والمرحلة الأخلاقية، فقد ظهرت تحت أسماء مستعارة إيحائية متناقضة وغامضة جداً مثل فيكتور ايريما يتوس Victor Eremitus وجوهانيس دي سيلينتسيو Johannes De Silentio ، وكونستانتين كونستانتيوس Constantin Constantious ، وجوهانيس كليماكوس Johannes Climacus ، وإنتي كليماكوس Anti-Climacus ، وفريتر ثاسيتورنوس Frater Taciturnus ، وانتر ـ أنتر Inter-Inter وهيلاريوس بوجباندر Hilarius Bogbinder. فالأسلوب غير المباشر الذي استخدمه كيركيجارد لنقل أفكاره عن طريق فقرات قصيرة من مُلَح لطيفة ونوادر طريفة وحِكم معبّرة بركانية كشفت عن ذاتها بهذه الطريقة المقنعة التنكرية ليس فقط لتمويه شخصيته الحقيقية ـ إن أمكن للفرد منا أن يتكلم عن هذا الجوهر النهائي لكيان كيركيجارد ـ وإنما لفصل أفكاره عن شخصية مؤلفها؛ فكان يقوم باعطاء قوانين جديدة للتفكير الكوني وللحياة بعامة.

أما أعماله المتأخرة فتعالج الأمور الدينية أيضاً، وبتفوق فني،

مكتبة الفكر الجديد

كما تعطي لفنه نغمة دينية حيثما أمكن. فالإنسان الذي تم اختياره ليطلِّع على هذه الرؤية الطاغية لوجود الإنسان في حضرة الله والذي ثبت بعد التجربة كما ثبت كيركيجارد؛ لا يرى أي تناقض في هذا الأسلوب التواصلي. إن كونية الحق تخترق بإشعاعها كل مكان؛ إنها أعظم من أن تُحصر داخل نمط معين واحد. يستخدم كيركيجارد هذا الأسلوب غير المباشر للتواصل في أعلى مستوىً له كما استخدمه باسكال قبل مائتي عام ونيتشه بعد خمسين عاماً. إنها ليست مُصادفة أبداً أن تعالج رسالته لنيل شهادة الدكتوراة مفهوم التهكم Ehe Concept of Irony لأن التهكم هو الأداة الممتازة والحادة لإيصال الحق بطريق الإيحاء غير المباشر.

كان المفكر الشخصي أو ما فضَّل كيركيجارد دعوته بالمفكر الذاتي والموجود داخله هو، قد اختار أن يتكلم هكذا بطريقة جدلية جداً. وباتباعه لهذه الطريقة استطاع أن يكيِّف نفسه بتفوقٍ مع طبيعة الروحانيات جميعاً، والتي هي دائماً مسألة خبرة. ولا يمكن الإمساك بها في صورْ ذات تواصلٍ منطقي. فكلما حاولنا أن نكون إيجابيين وماديين عند حديثنا عن الله انخفض مستوى فهمنا له، وقد أوضح كيركيجارد هذا في كتابيه «أحاديث دينية Religious

مكتبة الفكر الجديد

Discourses» و«تدريب على المسيحية Exercise In Christianity»

حيث يقول إن الدين يكمن في العالم الداخلي والروحي ويمتنع على التواصل المباشر والمنطقي. إن ولع المسيح بالتعليم عن طريق الأمثال والحكايات الرمزية ذات المعنى الأخلاقي؛ والذي هو أسلوب قابل لتأويلات متعددة، له ارتباط بهذه الحقيقة. فكما سنرى في فصل لاحق، لم يتوقف كيركيجارد أبداً عن التأكيد على أن طبيعة الوجود متغيرة دوماً ومتقلبة ومترددة ومتطورة وأن صيغتها المنطقية تميل دوماً إلى أن لا تكون جديرة بالتصديق (هايديجر Heidegger)، كما أنها ضخمة جداً وثابتة. إضافة إلى ذلك ، فإن جوهر الوجود الإنساني هو عدم اليقين وهو العالم ذاته حيث يجب أن يعيش الإيمان (وليس المعرفة) ليصبح ذا معنىً. وهكذا، فالإيحاء غير المباشر بالحق هو الوساطة الوحيدة الملائمة لشخصية الحق الغامضة. وحتى في العالم الإنساني العادي فإن الشفقة والرحمة أو الكراهية تكون تعبيراتنا الأكثر ملاءمة وكفاية غير مباشرة ورمزية مثلما أثبتها التحليل النفسي الحديث بشكل عَرَضي، ليس فقط لعالمنا الخيالي الوهمي، وإنما لحقل اللاوعي الكامل أو الإيحاءات غير الإرادية جميعاً.

فالتواصل غير المباشر في عالم الحقيقة الدينية يفرض علينا إجراء

مكتبة الفكر الجديد

خيارات أخلاقية. إنه يستلزم أيضاً مناشدة خفية للمستمع لكي يكتشف وصفه الخاص النسبى للذنب وعدم الكفاية وليرقب بجدٍ مستقبله المحتمل. إنَّ أكثر تعبيرات الحقِ غموضاً تتعلق بحقيقة أن الله الأبدي والذي لا حدود له، لا يمكن فهمه عن طريق العمليات العادية لمنطق الإنسان. فالمسيح الذي يدعى الإله والإنسان معاً ، هو التناقض التام بعينه؛ هو الحق الأبدي الذي يوجد في الزمان؛ لقد عاش قبل 1900 عام لكنه معاصر للمؤمن اليوم؛ هو «علامة على التناقض» مثلما أمثالِه وحكاياته الرمزية وعجائبه هي متناقضات أيضاً. وأخيراً، هو إهانة لمنطقنا البشري بالقدر ذاته الذي كان وجوده غير مقبول لمعاصريه. فبالإيمان وحده نستطيع فهم التناقض وهذا اتجاه يتطلب مغامرة وتجربة في الحياة. لقد قصد ستاريتز زوسيما، أحد شخصيات ديستويفسكي، هذا الإيمان الوجودي ذاته عندما أخبر المرأة الشكاكة أنها ستقتنع بحقيقة وجود الله لدرجة أنها ستتطور في ممارسة المحبة المسيحية. فالإيمان المسيحي هو شيء ينبغي أن يُعاش ولا يمكن فهمه في المطلق المجرَّد .

مكتبة الفكر الجديد

5

إن طريقة كيركيجارد في التعبير عن معتقداته بالكلمة والعمل أثرت في علاقته بالأسقف منستر والبروفسور نيلسون وبأخيه أيضاً، وأوصلته هذه العلاقة إلى حدِّ القطيعة. فكثير مما قاله كيركيجارد وكتبه كان عُرضة لسوء التفسير رغم أنه تخلّى عن أسلوبه في التواصل غير المباشر في سنيّ حياته الأخيرة، عندما شن هجوماً على الكنيسة. لقد شهَّرت به كوبنهاجن وأظهرته «بتكشيرات مميتة». ومن المحتمل أن تكون هجماته الأخيرة المكشوفة على «المسيحية الرسمية» قد بقيت غير مفهومة لعضو الكنيسة العادي في تلك الأيام، لكن من المؤكد أن الكهنة أصحاب الرتب العالية كانوا قد أحسُّوا بأن كتاباته نبوية ولا يمكن معارضتها. وقد شاركه نيتشه الذي جاء بعده ذلك المصير

مكتبة الفكر الجديد

الذي حظي به العديد من العباقرة، وهو أنه ظل ولمدة طويلة غير معترفٍ به ، ليس فقط في وطنه الدنمارك وإنما في جميع أرجاء أوروبا وأميركا، ويعزى السبب جزئياً لقلّة انتشار اللغة الدنماركية خارج بلاد الدنمارك. «إن تهدئة النظام وإماتته»، الذي يتكلم عنه ديستويفسكي بتبرير أقل كثيراً من تبرير كيركيجارد، كان غُمامة كثيفة تحلّق فقو سماء الدنمارك الروحية والعقلية. إن تبلُّد الحس في البلاد بالنسبة للتفكير الديني الأساسي تأثر بالأحداث السياسية التي جرت خلال الأربعينات من القرن التاسع عشر.

لقد وجَّه سورين كيركيجارد هجوماته الدينية ضد معرِّف والده الأسقف مينستر الذي قام بتثبيته وهو في الخامسة عشرة من العمر والذي كان لمهارته الإدارية وقدرته الفنية اللبقة على الخطاب الفضل في استرداد العديد من مواطني الدنمارك البارزين إلى حضن الكنيسة ومساهمتهم النشطة في حياتها. أما كيركيجارد فقد اعتبر مينستر رمزا لقبول المسيحية بتسوية مُذِلة لها مع الدولة ومع المصالح الدنيوية. فالدولة، كما يؤكد كيركيجارد بايراد الدليل، هيمنت على الكنيسة، بينما كان على الكنيسة أن تقوم بزحزحة أعضائها عن الرضا الذاتي المسيطر على الطبقة الوسطى ،

مكتبة الفكر الجديد

بخاصة، والذي جعلهم «يستمعون وأيديهم مطوية فوق معدهم، موجهين أنظاراً ناعسة نحو الأعلى». أما مينستر ، رئيس الكنيسة الذي عينته الحكومة، فكان بالنسبة لكيركيجارد عدواً لتعاليم المسيح. ففي نظر كيركيجارد لم يكن بالإمكان إيجاد تصالح بين العالم ومتطلبات المسيح؛ فالإثنان متباعدان كتباعد القطبين. فلو قدِّر للمسيح ان يأتي ثانية، فإنه سيُقابل بالعداء ذاته الذي واجهه في الماضي. فقبل ديستويفسكي بجيل تراءى لكيركيجارد بعضاً من جوهر هذا الروسي المدهش الأسطورة الذي كتب مشهده الكلاسيكي بين رئيس محاكم التفتيش غير المؤمن والمسيح العائد. كان مينستر بالنسبة لكيركيجارد لطيفاً لكنه، رغماً عن هذا ،كان سلفاً خطيراً لرئيس محاكم التفتيش الشيطاني. فقد جعل له ولمرؤسيه الدينيين مهنة ناجحة عن طريق الوعظ بأن المسيح قد تنبا بأن أتباعه سيُضطهدون. إن الأساس الأول للمسيحية في بلاد الدنمارك وفي كل أوروبا كانت ترتكز على القوة السياسية والمصادر المالية للدولة، وليس على قوتها الروحية. فإن تكون مسيحياً ، برأي كيركيجارد، يمكن أن يعني فقط أن تكون مُضطهداً وأن تكون «إنساناً متوحّداً» أمام الله ووحيداً منعزلاً بين الناس. فما دام الجميع الآن مسيحيين إسمياً فقد توقفت المسيحية عن الوجود

مكتبة الفكر الجديد

و كانت الكنيسة صورة زائفة للمسيحية.

لقد ركّز كيركيجارد هجومه في المسائل هذه على الأسقف مينستر الذي اتخذه رمزاً للكنيسة اللوثرية الراسخة البنيان والراضية عن ذاتها. أما الحقيقة، فهي أن هذا الأسقف كان رجلاً طيب المقصد وبلا طموح أو تفكير إبداعي. كذلك ظهر نزاع مماثل، ولكنه مؤلم بدرجة أكبر، بين سورين وأخيه بيير كريستيان أسقف آلبورغ الذي كان شخصاً يتميز بهدوء يفوق هدوء الأسقف مينستر، وبظهور أقل. ففي دفاعه عن نفسه اشتط ببير لدرجة أنه نشر محاضرة ضد سورين، وفي أثناء هذه المناظرات وصفه فيها بعدم الواقعية والاستغراق وغرابة الأطوار. وهكذا فإن الصديق الوحيد المتبقي له والمؤتمن على أسراره كان البروفسور نيلسون. لكن سرعان ما اكتشف سورين أن هذا العلاَّمة المحترم كان قد استغل العديد من الأفكار التي عبّر له عنها بصورة شخصية في منشوراته الخاصة الفلسفية. عندها أدرك سورين أن عليه أن يبقى كنبي متوحِّد في البرية وللأبد، أن يبقى بحق واحداً فرداً أمام الله، فكانت طريقه هي طريق التوحّد.

منذ ذلك الحين فصاعداً (1846) لم يعد يُسِّر سورين بأفكاره

مكتبة الفكر الجديد

الحميمة والشخصية وإن بقي الأخير على تقدير منشوراته العديدة فقط. إذن؛ لقد وصل إلى المرحلة الأخيرة للعزلة ولا يواجهه الآن سوى الله. لم يرغب كيركيجارد في الحصول على شفقة أحد رغم أنه كان يأمل في الحصول على آذان صاغية لرسالته. وهو مثل نيتشه لم يرغب في أن يكون له تلاميذ، «منهم أعظم المصائب»، لكن كانت تجربة مريرة كتجربة الجثمانية أن يحب نفسه بلا متعاطف إطلاقاً. لم يستطع سورين أن ينسى ريجينا أولسن وخطوبته التي انتهت؛ بل كان في الحقيقة مديناً لذكراها بتلك البصيرة المتعمقة في علاقة الإنسان بالله، حتى أن الفيلسوف الروسي شيستوف Shestov ، المتبحِّر في كيركيجارد خلال فترة حياته الأخيرة والمبالغ في الحماس له، أعلن أنه يعتبر ريجينا أولسن أهم من اكتشاف أميركا. كان كيركيجارد كثيراً ما يُشبِّه علاقة الإنسان بالله بخبرة العاشق لمعشوقته؛ فهي مؤلمة في الوقت الذي هي فيه مفرحة، وهي عاطفية لكن بلا إشباع، وحيّة في الزمان رغم أن لا نهاية لها. ففي اللحظة التي فك فيها سورين ارتباطه بريجينا كان حراً ليدخل في «ارتباطه بالله».

توسَّع كيركيجارد في نقده لأحوال الدنماركيين عندما قاربت

مكتبة الفكر الجديد

حياته القصيرة على الانتهاء، إلى أن وصل به الحال إلى هجوم على العالم المسيحي بأكمله، فصاغ ألفاظاً حادة عنيفة نشرت في سلسلة كتيبات عرفت بعنوان «اللحظة ـ The Moment» أو «البرهة The Instant». كانت هذه المنشورات موجهة بشكل رئيسي ضد البروفسور مارتينسون Martensen الذي كان قد وصف الأسقف الراحل مينستر بأنه شاهد على الحق. لقد أغاظ كيركيجارد استخدام مارتينسون للمصطلح «شاهد»، لأن الكلمة كانت تعني باللغة اليونانية الأصلية «شهيد»، وهي كلمة كبيرة تستخدم في الحديث عن رجل دين كان يحصل على راتب عالٍ. لقد جمعت هذه «الكلمة الصغيرة» كل ذرة من قوة سورين المضمخّلة ودفعته لكتابة تلك الصفحات الحانقة التي أصبحت تراثاً كلاسيكياً بفضل قدرتها على تحريك الضمير المسيحي.

مكتبة الفكر الجديد

6

كانت الكنيسة اللوثرية هي الكنيسة المثبتة أو كنيسة الدولة في بلاد الدنمارك، واعتبرت الأمة أن حماية الكنيسة واجب فرضه الله عليهم. ولكي تشجِّع الدولة مصلحة الكنيسة، أنشأت التدريب الديني الإجباري في جميع مدارسها، ولتصون رجال الدين ضمنت لهم مستوى اقتصادياً محترماً ومنحتهم مركزاً في وظائف الدولة.

ثار كيركيجارد على هذا النهج من الضمان الحكومي لرجال الدين ومن سيطرة الدولة على الكنيسة. فايجاد ضمان لكنيسة مسيحة كان يعني له خيانة لكل عقيدة في تعاليم المسيح ولكل مَثَل من أمثاله . أن تعيش «حسب النهج المسيحي» يماثل قدرتك على تحمُّل أقصى درجات اللاضمان أمام الله والناس. لقد تحمّل تلاميذ المسيح الاضطهاد والموت؛ لم يكن لهم أي مركز رسمي كما

مكتبة الفكر الجديد

لم ينالوا أي اعتبار بأي طريقة أو شكل . فاتباع المسيحية الأوائل المجهولين كانوا شهداء، غير مشرَّفين ولا مدفوعي الأجور أو محترمين لكونهم ينتمون إلى الكنيسة.«احذروا الكَتَبَة، والذين يختالون بأثواب طويلة، الذين يحبون التحيات في الأسواق العامة والذين يختارون أفضل المقاعد في أماكن العبادة ومواقع الشرف في الولائم» (لوقا 20:46). أن تكون تابعاً للمسيح لم يكن في الأصل يعني أن تحصل على «جُحر كالثعالب» للمبيت أو «عش كالطير في السماء» تأمن فيه. أما في يومنا هذا، كتب كيركيجارد، فيغدو القس الشاب «باحثاً» بعد انتهائه من تدريبه الكهنوتي، لكنه ليس باحثاً عن **المطلق**؛ إنه يبحث عن مركز كهنوتي. وفي هذا يختلف اختلافاً جوهرياً عن سقراط الذي لم يقبل راتباً لقاء تعليم الصبية، والمسيح الذي كان صديقاً للفقراء.

كان قرار كيركيجارد الشخصي برفض المركز الذي عينته له الكنيسة خطوة منطقية، خاصة بعد أن اشارت سلطات الكنيسة والسلطات العامة إلى هلعها من كتابيه «المرض حتى الموت The Sickness Unto Death» و«التدريب على المسيحية Exercice In Christianity» . إن الحوار الساخر التالي المأخوذ من كتابه «اللحظة

مكتبة الفكر الجديد

The Instant» يمثل موقف الذي لا يقبل التسوية في هذا الخصوص :ـ

س «هل كان لبولس الرسول مركزاً رسمياً؟»

ـ «لا ، لم يكن لبولس الرسول مركزاً رسمياً.»

س «هل جمع مالاً كثيراً بطرق أخرى؟»

ـ «لا، لم يجمع مالاً كثيراً أبداً.»

س«ألم يكن متزوجاً، على الأقل؟»

ـ «لا، لم يكن بولس متزوجاً.»

س «إذاً، لم يكن بولس رجلاً جاداً.»

ـ «لا، لم يكن بولس رجلاً جاداً.»

لم يدع كيركيجارد أية فرصة تمر إلاَّ وانتهزها لينتقم من الحياة بطريقة أقل غموضاً مما جعلها تبدو أحياناً. إليكم قصة أخرى من قصصه التي خدمت حملته على رجال الدين، تلك الحملة التي لم تكل أبداً: كان راعي كنيسة سويدي متأثراً جداً للانطباع الذي تركته موعظته على رعيته فحاول تهدئة طائفته بقوله، «لا تبكوا، يا أطفالي. لا تزال هناك فرصة لعدم صحة كل هذا.» لماذا لا يقوم

مكتبة الفكر الجديد

قسيس اليوم بقول هذا الآن؟» يتساءل كيركيجارد. والجواب هو أنه لم يعد ضرورياً؛ نعرفه جميعاً ـ ما دمنا قد انخرطنا جميعاً في سلك الكهنوت الكوني.

فمأساة المسيحية، تكمن إذاً في أنها لم تعد تمثل ما كانت تمثله في الماضي: أقلية مجاهدة، متألمة، ومعارضة. بما أننا أصبحنا جميعنا مسيحيين، فقد لطَّفنا من جوهر تعاليم المسيح حتى أصبح هزيلاً رقيقاً ضعيفاً كأخلاق العامة، وكنوع من قضاء رجال الأمن. كذلك نجحنا في إبطال المسيحية باسم المسيحية. «لماذا لم نعد نرى التناقض بين طبيعة المسيحية كلاهوت جَدَلي وبين جوهر الدولة كوجود كميّ؟ لماذا لا نرى كيف تدفع الدولة موظفيها لكي يدمروا المسيحية..؟ هكذا كان مبرحاً ألم كيركيجارد عام 1854 ، أي قبل وفاته بعام واحد، وقبل ثلاثين عاماً على ارتفاع صوت تولستوي البركاني موجهاً اتهامات مماثلة للكنيسة الأورثوذكسية الروسية.

مكتبة الفكر الجديد

7

كان لكيركيجارد أسلاف روحانيين في معارضته للمسيحية الرسمية هذه ولرجال الدين. فقبل هذا بمائتي عام تقريباً ظهر في انجلترا رجل يدعي جورج فوكس، وكان أول المعتنقين لمبدأ الكويكرز Quakers ، فحمل شاهداً عنيفاً ضد «الكهنة المأجورين» في عصره كما حاول إرجاع المسيحية في كنيسة العلمانيين إلى «طبيعتها البدائية الأولية»، حسب تعبير ويليام بين William Penn ومثلما هي حركة الكويكرز عند فرقها المتشددة اليوم. كذلك ساعدت تقوى تيرشيتجن Tersteegen في ألمانيا على حقن الدم البروتستنتي بعنصر جيد من هذه الديمقراطية الروحية. أما كيركيجارد، فقد قام بشن معركته منفرداً دون مطالبة بالاستمرار التاريخي . وكان مدركاً تماماً لمهمته غير العادية، وقد

مكتبة الفكر الجديد

بيَّن بخشوع أن المصلحين الذي جاءوا قبله كانوا قد عملوا كل ما بوسعهم «لتوسيع انتشار المسيحية» بينما يحاول هو أن يأسر هذا التوسع ويحوِّله إلى إيمان داخلي. كان يعلم أن المسيحية التي يطالب بها هي صارمة ولا توافقية، فكان يأمل أن يعبِّر الأسقف مينستر عن القليل من التعاطف مع آرائه على الأقل ، لكن مينستر بقي بمعزلٍ عنه.

كان لمعظم هذه المعارك الموجهة ضد الكنيسة المثبتة جانب سلبي بالنسبة لجهود كيركيجارد الشاقة، وقد أصبح هذا النهج سلاحاً أكثر خطورة في أيدي الثوريين الاجتماعيين اللاحقين أمثال كارل ماركس، الذين اعتبروا الكنيسة إحدى القوى التي استخدمتها الطبقات المالكة للإبقاء على الطبقة العاملة وديعة سهلة الانقياد ومقهورة. أما معارك كيركيجارد فلا تحمل أية إشارة للأوضاع الاجتماعية أو التقدم العلمي الذي أصبح فيما بعد مصدراً آخر لعدم الرضى الديني. فكان محافظاً في السياسة واللاهوت. وقد أملى عليه شعوره بالصدق الديني حربه الفردية نوع خاص . فقد شعر أنه تم اختيار الإله له لينجز مهمة ضرورية لكنها ليست محببة إطلاقاً، رسولية في مهمتها لكنها مريعة لإخوته

مكتبة الفكر الجديد

المسيحيين. أما تلك الاتهامات بالفساد المريعة والتي قذف بها القساوسة دون قيد أو شرط ؛ فكانت غير عادلة بلا شك، ومن الممكن أن تكون كلمات الوداع والمحبة التي نطق بها وهو على فراش الموت إحدى اعترافاته المقنَّعة بخطأ أعماله. فلم يتعب أبداً من شكره لله على كرمه وعلى القوة التي كان يدين له بها. فكانت العبادة والصلاة من ممارساته اليومية كما كان الشك رفيقه اليومي. وفي النهاية حل عليه صفاء وسلام داخليين .

مكتبة الفكر الجديد

8

في أيلول من عام 1855 سقط كيركيجارد في الشارع، تماماً كما حصل لنيتشه، ورفض أخذ سر القربان المقدس الأخير على يدي «موظف من الدولة»، لكنه طلب فقط أن يذكره كل الشعب الذي أحبه والذي لم يستطع أبداً أن يفهم معاناته وآلامه.

أما أو.بي مونراد O.P. Monrad الدنماركي وأحد كُتّاب سيرة كيجارد، فقد لخّص حياته بكاملها كمحب تعس وكاتب فاشل في هذه الجملة الطلقة الفورية: «قصة خطوبة، وقليل من حبر لورقة ساخرة، وكلمة صغيرة في خطاب ـ هذا كل شيء.» عندما كتب مونراد هذه الجملة عام 1909 لم يكن يعلم أن تفكير كيركيجارد كان موجّهاً نحو تحريض عقول دارسي اللاهوت والفلاسفة لإثارة جدال عاطفي حماسي أكثر مما كان بالإمكان اقتراحه في زمانه هو.

مكتبة الفكر الجديد

9

عام 1840، أي قبل أن يصبح حقيقة تاريخية بما يقارب مئة عام، تنبأ كيركيجارد بما لا يقل عن «الإفلاس التام الذي كانت أوروبا بأكملها تتجه نحوه». لقد تكلم في زمن لم تكن فيه جماهير الشعوب الأوروبية قد أبرزت مشكالها في كل مظهر من مظاهر الحياة عن طريق ثقل أعدادها الواضح ومطالبهم العديدة بعد . ومع ذلك فإنه شعر ، حتى في أثناء حياته ، بأن اليوم الذي ستقع فيه رسالته الدينية الشخصية على آذان صَمَّاء هو يوم قريب. «وأخيراً»، كتب كيركيجارد قائلاً، «وجهت مناقشاتي نحو الجماهير...» لكن «المؤمنين» لم يكترثوا بي حتى بالاصغاء. «إن فهم الشعب لي قليل جداً لدرجة أنهم لا يدكون بأن شكواي هي أنهم لا يفهمونني». لقد اعتبر مهمته هي القيام «بمراجعة دعوة

مكتبة الفكر الجديد

مسيحي»، و«أنهم جميعاً، بما فيهم الأسقف مينستر، يعلمون أنني على حق...» فكما كان الحال بالنسبة لديستويفسكي ونيتشه، كانت تمر به فترات فخر تقترب من الغرور أحياناً، لكن تواضعه كان في الكثير من الأحيان يفسح المجال لليأس.

كتب قبل بضعة أشهر على وفاته يقول: «هذا هو الدرب الذي يجب أن نسافر عليه جميعاً... فوق جسر التنهّدات إلى الأبدية.» كاتب خصب الإنتاج ينجز عمله بسرعة متدفقة لكنه لم ينجح في البقاء متخفيّاً كما كان قد اعتزم. بدأ مهنته عام 1838 وهو في الخامسة والعشرين من العمر بهجوم على هانس كريستيان آندرسون شاعر قصص الجنيات، وانتهى به الأمر إلى اتهام المسيحية جهاراً بالفساد و«بالجريمة المسيحية». لكن بلاد الدانمارك استمرت في حبها لإشعاعات هانس كريستيان آندرسون البرّاقة وانعكاسها على الحياة، ولأصوات الكنيسة الغنائية، ولملابس يوم الأحد، ومواعظ قس لا يشوّش الناس كثيراً، وفضّلوها جميعها على رسالة دير كيجارد التي لا راحة فيها. واستمرت باريس الشمال ولوقت طويل جداً تنظر إليه نظرتها إلى إنسان غريب الأطوار وأهل لأن يبقى هدفاً لصبية الشوارع ولإشاعات السُكّان.

مكتبة الفكر الجديد

10

كان الطور الأخير لوجود كيركيجارد يتألف من مراحل ثلاث تمثل تطور حياته الروحية والتي اختبرها كأي رجل متدين آخر، وهذه الراحل هي: المرحلة الجمالية، والمرحلة الأخلاقية، والمرحلة الدينية (إما ـ أو). ولا يوجد شك في أنه حافظ في جزء كبير من حياته ـ على الأقل ـ على بعض مميزات الجمالي، وبدقة أكبر، حافظ على خصائص الشاعر، فمثلاً أحب السخرية واستمر إلى النهاية يستعمل العنف التهكمي. لكنه اعتبر أن من المستحيل إيجاد تراض بين هذه المراحل الثلاث: لأن حياة الروح تتحرّك للأعلى في مراحل نمو فجائية.

لقد اتخذت هذه المراحل لنفسها اهتماماً إضافياً في زماننا، وذلك بسبب ادعاءات الوجودية الحديثة التي تعتبر كيركيجارد

مكتبة الفكر الجديد

سَلَفاً لها. ومع هذا يوجد القليل من الارتباط الروحي بين كيركيجارد والوجوديين الفرنسيين البارزين أمثل سارتر وكامو، إذ بقي محور تفكيرهم بمعظمه ضمن حدود المرحلة الأولى، وهي المرحلة الجمالية.

ففي المرحلة الجمالية ينمّي الإنسان مزاجاً من الانسجام أو اللذة الممتعة ولكن المخادعة والتي من أمثلتها البارزة كتاب كيركيجارد نفسه بعنوان «يوميات المضلِل Diary of the Seducer»، وكذلك التحليل البارع لمقطوعة موزارت «دون جوان ـ Don Juan». فالإنسان الذي يُحِّلُ نفسه من الصراع الأخلاقي ويغرق ذاته في البحث عن الجمال والمتعة، يبقى ضمن دائرة الحلم واللاواقع. فيصبح كل شيء لعب ومتعة سلبية أو هوس شاعري. ويفترض التاريخ حدوداً لأسطورة تبدو كالظلال بينما يخسر الواقع شخصيته الحقة. فيبني الجمالي لنفسه عالماً مصطنعاً من الأحلام ويعيش في الحاضر المباشر فقط، ويجد نفسه في النهاية منبوذاً من الحقائق الأخلاقية للحياة، كما تمثل تراجيديا نيتشه المتأخرة. فهي طريق مسدودة المنافذ تقود إلى الضجر والاشمئزاز وتحرم الحياة كل معنى لها. يملك الجمالي اللحظة الحاضرة فقط، فهو متمركز

مكتبة الفكر الجديد

حول ذاته وفاقد للأمل. هو يبحث عن ملذات كثيرة كي يهرب من يأسه فقط، لكنه يتعلّم أن تجنبه للواقع الأخلاقي والديني يقوده إلى لاشيء. فهو مثل بارسيفال ـ Parsifal الشاب، لا يعرف كيف يطرح الأسئلة الصحيحة عن معنى الحياة والمعاناة. لا يسأل أبداً. إن كان مذنباً وهو يشبه الدكتور فاوست بعيشه في فراغ سحيق القاع. يطبّق كيركيجارد حكمه على التفكير الصافي بأنه خيانة للروح بحماس مماثل عندما يتحدّث عن الشاعر فيقول: «من وجهة النظر المسيحية وعلى الرغم من جميع النظريات الجمالية، يعتبر وجود أي شاعر خطيئة وأعني بالخطيئة أن يمضي الإنسان حياته في كتابة الشعر بدلاً من العيش؛ وأن يشغل تفكيره بالله والحق في خياله فقط بدلاً من أن يهدف إلى تجربة كل منهما وجودياً».

(«إما ـ أو» و «المرض حتى الموت»).

إن إدانات كيركيجارد العديدة والتي هي نبوية تلائم مديح نيتشه المتأخر للحياة على أنها «ظاهرة جمالية» وهي القيمة الوحيدة المبررة للحياة بالنسبة له. لم يعترف نيتشه بالأخلاق المسيحية أو بأي مبدأ خلقي عالمي؛ فكان يأسه الأخير ورؤيته لحياة جديدة

مكتبة الفكر الجديد

يفتقران لإطار ما تدعياً لتحذير كير كيجارد والذي سبق فيه نيتشه بجيل كامل.

هكذا كان مزاج الوجودية التي اعتُبر كل من سارتر وكامو من دُعاتها. يوضح سارتر يأس الفنان تمثيلياً في روايته «الغثيان Nausesa» كما يوضحها كامو في مقالةٍ له عن سيزيف ـ Sisyphus، الذي يدرك عبث وجوده لكنه، على الرغم من هذا، يستمر بنوعٍ من الشجاعة الكئيبة، في محاولة لإعطاء الحياة بعض المعنى. ومعَ ذلك، يبدو أن بعض الوجوديين يبتعدون عن المشاعر في هذه العَدَمية ويشعرون بالضياع، فيمدحون الوجود كشعور هذياني بالحرية، وهي حقيقة جديدة خالية من النظريات والمعتقدات والتقاليد والصيغ المبتذلة التي موَّهت جهلنا السابق وشعورنا بعدم الأمان. وتأكيداً، فإن عالمهم الجديد لا يتصف بالضمان ولا بالسلطة، لكنه ينتظر قرارات الإنسان الجديدة التي تتميّز ببعض الغموض.

وها هو سارتر يمدح هذه الحرية البروميثية. ففي مسرحيته «الذباب ـ The Flies» تمثيل درامي لأسطورة أوريستيس ـ Orestes الإغريقية حيث يقتل أوريستيس أمه بترفع على أي خوف من

مكتبة الفكر الجديد

عقاب الآلهة يصرخ في جوبيتر ـ Jupiter قائلاً، «أنا لست سيداً ولا عبداً، أنا حريتي الذاتيّة! ففي اللحظة التي خلقتني فيها توقفتُ عن كوني مُلكاً لله!» وهكذا لم يعد وخز الضمير والمخاوف تذكيرات بالقوانين الأخلاقية، فهي لا تتعدى كونها ذباباً مزعجاً أو حشرة مؤذية ينبغي للإنسان القضاء عليها كي يحافظ على استقلاليته. فالإنسان، حسب اعتقاد سارتر، نادراً ما يعي حريته. «هي تضربه» كما هو الحال مع أوريستيس «كالبرق». لقد فقدت الآلهة كل سلطة لها عليه. وهو يؤكد بسعادة إعلان نيتشه بأن «الله قد مات». فالندم سيلغي تماماً كل شكل للحرية، وهي حرية «تطارد الآلهة عن عروشها القديمة الأثرية» وعلى الإنسان الآن «أن يخترع طريقه الخاص».

يدعو سارتر هذا الاتجاه اعتباطياً بـ «الإنسانية الجديدة» المتمركزة حول الإنسان كنقيض لطريقة حياة متمركزة حول الله. فهذا الاستخدام لمصطلح «الإنسانية» هو اعتباطي لأنّ الإنسانية لم تؤمن أبداً بتسليم للغرائز بلا لجام وانفصال تام عن القوانين الأخلاقية، بل تؤمن بحرية الفرد لصالح كماله الأخلاقي الخاص ولتحقيق كمال المجتمع. أما حرية سارتر فلا تتعدى كونها فوضى

مكتبة الفكر الجديد

أخلاقية. فهو غير سعيد لأنه، كما يبدو، قد حُكم عليه بأن يكون حراً. ولا يميّز سارتر إلا هذه التصنيفات للوجود الإنساني: الحادث، والحاجة، والحرية، والوحدة، وفقدان الوعي. فالإيمان القديم بأن للإنسان مصيراً تحدده سلطة عُليا قد ولّى؛ وهو الآن «حر». لكن نتيجة هذه الحرية هي انسلاخه عن بني جنسه وخوفه اللاحق من الحياة أو قلقه الشامل التام. علينا اختيار ما نعمل لكن لن نعرف أبداً فيما إذا كان اختيارنا صحيحاً أم لا، كما لا يمكن للفرد منا أن يعرِّف الإنسان طالما هو حي «لأنه حياته ولا شيء غيرها». فليس للحياة إذاً أي نمط أو تصميم أبدعته العناية الإلهية؛ هي بلا معنىً، ولذا فاليأس هو الشيء المنطقي. إن فلسفةً كهذه هي صرخة بعيدة عن ملاحظات كيركيجارد في «الصحيفة Journal» والقائلة «إن علينا أن نفهم الحياة عكسياً (للوراء)، وأن نعيشها تقدمياً (للأمام)».

يعتقد كامو أيضاً أن الحياة بلا معنى، لكن لا يزال يجاهد لإيجاد معنىً لها. إن معضلته التي لا تُحلَّ تكمن في إيجاد فرصة للتفوّق الأخلاقي دون الاعتقاد بالله. يقول، «هل بإمكان الإنسان أن يصبح قديساً دون الإيمان بالله؟ تلك هي المشكلة الملموسة

مكتبة الفكر الجديد

الوحيدة التي تستحق الدراسة اليوم». ففي مسرحيته «كاليغيولا ـ Galigula» يسلِّم كامو بواجبه نحو بني البشر دون أن يتمكن من حل المشكلة الأخلاقية المتأصلة، لكن مسعاه، على الأقل، في اتجاه التفوّق الأخلاقي يدفعه قُدُماً نحو إنسانية أكثر أصالة مما كانت أو يمكن أن تكون عليه إنسانية سارتر. وكمثل سارتر الذي وعد بأن يكتب دستوراً في علم الأخلاق في زمن قريب، يتركنا كامو دون أي توجيه أخلاقي.

مكتبة الفكر الجديد

11

هكذا هو العالم الذي يتعدّى الشر والخير والذي يعتبر نيتشه والعديد من شخصيات ديستويفسكي أبرز مواطنيه. فبالنسبة لكيركيجارد لم تكن الفلسفة الإلحادية للوجوديين الفرنسيين كما لم تكن فلسفة هايديجر أكثر من نتائج نهائية، أو مبالغ فيها، للنظرة الجمالية أو المتعمّقة التأملية، فهي مرحلة من مراحل الحياة لم يعتبرها كيركيجارد جزءاً من الوجود الحق. إن الصفات الوحيدة والمشتركة بين الوجوديين الألمان والفرنسيين وبين الوجودية التي أنجبها الدين هي الإدراك الحاد القوي لظلمة الحياة والشعور بترقب قلق ناتج عن ذلك القلق الغامر أو الخوف الشامل من جميع أشكال الحياة الذي صوَّره كافكا تصويراً دراميا مقنعاً جداً. إن الوجوديين الدينيين في عصرنا هذا (نيكولاس بيردييف

مكتبة الفكر الجديد

Nicholas Berdyaev غابرييل مارسيل Gabriel Marcel وربما كارل جاسبرز ـ Karl Jaspers) يعترفون بمطالب الله أو المطلق على الإنسان في الوقت الذي يدركون فيه أن الإنسان يتصرف وكأنما قد أُخفي عنه الأمر بشكل كبير عندما يحاول أن يخدم إرادة الله. وفي خضم هذه الظلمة والكتمان يحاول الإنسان أن يلمس ذيل ثوب الله ولهذا لن ينتهي به الأمر إلى اليأس، إذ لديه إيمان بانتصار الله النهائي.

وهكذا، ففيما يتعلق بسارتر وأصدقائه كان اختيار اسمهم كوجوديين اختياراً اعتباطياً ومضللاً. فكيركيجارد يقصر مفهوم المصطلح «الوجود» على المستويين الأخلاقي والديني، ولم يتكلّم إطلاقاً عن الوجودية. «إن وجودك ككائن إنساني يعني وجودك أخلاقياً» (ملحق لمقال) «ومواجهتك الدائمة لخيارات أخلاقية جديدة». فالرجل الجمالي يبقى منعزلاً وجامداً، لكن الرجل الأخلاقي هو في طور التكوين. يتطوّر كشخصية تجمع بين الكوني وبين كيانه الذاتي وهكذا فإنه يشارك الأبدية الخلود. في هذه المرحلة يمكن للإنسان أن يحصل على الاستقرار ويتمتع بالقيادة الحقة ويتخذ موقفاً إيجابياً تجاه الحياة. وهكذا يشكل جمال الحياة

مكتبة الفكر الجديد

الحق والذي يفشل الرجل الجمالي في اكتشافه ضمن حشد الأشياء والعلاقات التي تقدِّم ذاتها له بزيٍّ جذّاب. لقد سعى دون جوان عبثاً للتوصل إلى الروح الإنسانية الفتيّة الموجودة لدى العديد من النساء، لكن «الزواج»، كما يكتب كيركيجارد الأعزب، «هو أهم اكتشاف يمكن للإنسان أن يقوم به».

من المحتمل أن يرفض المسيحيون المحدثون بعض آرائه. وبرغم ذلك لا يمكن نسيان عمق التفكير في بصيرته الدينية والمتمثل في القطعة التالية: «دع الرجل يكون رجلاً، والمرأة امرأةً. عندها فقط يمكن للمرأة أن تكون كل شيء بالنسبة للرجل. فلكونها امرأة يمكنها فهم المتناه وبناءً عليه يمكنها منحه للرجل. إذ من غير المرأة يكون الرجل روحاً قلقة متململة لا تجد سلاماً لأنها لا تجد استقراراً أينما توجهت. لماذا لم يقل الكتاب المقدَّس إن على المرأة أن تترك أباها وأمها وتلتصق برجلها؟ أليست هي الشخص الأضعف الذي يبحث له عن ملاذ مع الرجل؟ ولكن لا، يقول الكتاب المقدّس، يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بزوجته. والكتاب المقدّس على صواب: فهي الأقوى نظراً لأن الزوجة تعطي الرجل ما هو متناهٍ؛ هي ملاذه. أنا الآن مبتهج لكوني قد

مكتبة الفكر الجديد

فهمت أهمية المرأة بهذه الطريقة؛ وهكذا فإنها تصبح بالنسبة لي رمزاً للجماعة. فالروح في موقف محرج إن عجزت عن الاستقرار داخل الجماعة وبالتالي إن لم تستطع أن تعطي ذاتها لهم. فبالنسبة للجماعة التي تحتاجها الروح لتجد لها مسكناً في هذا العالم المتناه لا يوجد حقيقةً رمزٌ أكثر جمالاً من الزوجة».

ولأن كيركيجارد كاتباً مرناً ذا مهارة لا تضاهى، لم يفشل في اعتبار وسيلته المفضلة في التعبير؛ السخرية والفكاهة. تعمل السخرية في موضع ما بين الجمالي والأخلاقي، فقد تولدت عن عدم الرضى وهي ناقدة ببرود لأي عيب أو شائبة وتبقى أنانية لا تدعو إلى القبول أو الموفقة على الرغم من احتمال مصداقيتها. لن الفكاهة تكشف عن فهم. ففيها نغمة دافئة، متسامحة ومتعاطفة وتصلح بيننا وبين ضعفَنا وخطيئتنا، في حين تبقى السخرية متغطرسة وناقدة. يوجد، إذاً، في الفكاهة إيحاء بضمير ديني، وإدراك لمأساة متحدة مع الهزلية ووعد بأمل أو صلح. ولكن يمكنها أن تضم أيضاً نغمة توحُّد وحتى ألم؛ وغالباً ما تتعدى التواصل وتتولد من العذاب؛ وهي لهذا تُـعِدُ للمرحلة الدينية في الحياة.

مكتبة الفكر الجديد

12

بما أن الوجود يعني القيام باختيارات أخلاقية فهو «إما ـ أو» مستمر وحياة عمل أيضاً. وعند تآلف المتناه مع اللامتناه، والأبدي مع الدنيوي المؤقت تكمن معضلة الإنسان في أن عليه استقبال القرارات في حقل العيش الأخلاقي غير القانوني. فالوجود ليس بالتأكيد نظاماً فلسفياً جديداً أو أخذ رؤية جديدة للحياة. فذكاء الإنسان لا يمكن أن يبقى أبداً خارج كليّة الحياة وينظر إليها كمتفرج ينظر إلى شيء خارج ذاته. «فالتفكير الصافي»، يقول كيركيجارد، «هو صورة لشيء تجريدي.» فالإنسان الذي يفكّر مليّاً في الحق فحسب هو عُرضة لأن يصبح «خائباً مثل يهوذا.» ففي زماننا يوجه جوليان بيندا ـ Julien Benda لوماً حاداً مماثلاً للمفكرين إذ إنهم ارتكبوا خيانة ضد أولئك الذين كان من المفروض على المفكرين

مكتبة الفكر الجديد

قيادتهم، وذلك لأن هؤلاء المفكرين يعيشون في برج عاجي من الاكتفاء الذاتي (خيانة الكتبة ـ La Trahison de Clercs). فالتفكير الصافي يُغفل العمليات الإبداعية لله الذي لا ينطبق عليه مصطلح «الوجود». فبالنسبة لكيركيجارد، «الله لا يفكّر، بل يخلق، الله لم يوجد، بل هو أبدي سرمدي».

إن الطريقة الوحيدة المناسبة التي تساعد الإنسان على فهم الحياة هي المعرفة ـ والإيمان وليس التفكير الموضوعي والاستنتاج الذي يتبجّح به كثيراً الفيلسوف الذي يشيد قصراً فخماً من التفكير المنطقي ضمن نظمه لكنه يستمر في العيش داخل بيت كلب. فالمنطق مرتبط بالأسئلة التالية، «لأية غاية أقوم بهذا أو ذلك ولماذا؟» أو «لأجل من ولماذا يحدث هذا؟» لكن عمل الله يتعدى حدود الفهم، لذا من الممكن أن يبدو الله غير منطقي لنا مثلما بدا حين طلب من إبراهيم* قتل ابنه اسحق**. لكن الله حكيم وإنما

---

* ورد في الإنجيل العهد القديم.

** وجاء في القرآن «فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام إني أذبحك فانظر ماذا ترى؛ قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين». سورة الصافات الآية: 102. كان المقصود سيدنا إسماعيل عليه السلام.

مكتبة الفكر الجديد

بطريقة غامضة تبدو لنا متناقضة. فأي حق هو متناقضات معقدة- Complexio Ppositorium حسب مصطلح جاكوب بويهمي Jakob Boehme ، هو «حق مضطرب» يقود إلى اليأس طالما أن الإيمان لا يعطيه توجُّهاً ما.

من الواضح أنه لا يهدف من هذا التأكيد الوجودي تكوين نظام فكري جديد كفلسفة هيجل التي ثار عليها كيركيجارد بعاطفية وحماسة، عندما هاجم أنواع الفلسفة المبنية على المنطق وحده. فمن الممكن، بالطبع، بناء نظام منطقي يتضمن جميع جوانب الحياة كأنه قائمة مبوبة لتلك الحياة التي هي الواقع، لكن المنطق بحد ذاته هو جزء من خلق الله ولا يمكنه أن يخطو خارج الذات كي تقيِّم كليّة الحياة. لكن عليه أن يفوق ذاته في الإيمان. يحوِّل الفيلسوف الوجودي رأي ديكارت القائل. «أنا أفكّر، إذاً أنا موجود» بقوله، «أنا موجود، إذاً أنا أفكّر». لكن الفلسفة الوجودية الدينية تقول، «أنا أؤمن، إذاً أنا موجود».

يبدو من المهم التأكيد على أن كيركيجارد لم ينفِ جذرياً التفكير المنطقي العقلاني الذي يعتبرة مملكةً هو سيدها. ولكنه يؤكد على فكرة أنه بينما نعيش في مملكة التفكير يتوجّب أن يكون التفكير هو

مكتبة الفكر الجديد

ما يلزمنا ليصبح مطابقاً للحياة.

يوجد أيضاً متناقضات أو تضادات ظاهرية في هذا المطلب الوجودي: تحركنا نحو الضوء يتطلب قفزة في الظلمة؛ إن من الضروري تفرُّد الغرض للوصول إلى الكل؛ وإن العقل البسيط هو وحده المسيطر على الأمور المعقدة؛ والذاتي أو الشخصي يقود إلى الاتحاد مع الموضوعي، والأبدي يحيا في الزمان فيمنح الوجودي خاصية موثوق بها للأنا؛ فالنفس لا تذوب كما في التنسك أو ألوهية الكون أو الرومانسية الدينية. إنه ، على الرغم من ذلك، في خطر أن يُنظر للذات غير الموثوق بها والجائرة أو غير ذات العلاقة كما لو كانت ثقة. فعندما يعلن كيركيجارد أن وجود الإنسان هو خبرة أو مرحلة تطور لاحتمال ما سيكون فهو، بالطبع، لا يفكر في النمو النفسي أو الجسدي إذ يتطور الإنسان فيصبح إنساناً عن طريق كفاحه وتوتره ، لكنه لا يستطيع أبداً أن يصبح مسيحياً إلا أنه يحاول جاهداً. فالمعاناة التي يوليها كيركيجارد أهمية كبرى كما أولاها ديستويفسكي هي العنصر «الذي تتصف به الذات بالتديّن فتبدأ بالتنفّس»؛ فالمعاناة إذاً هي «الصيرورة. كما أن جزءاً من هذه المعاناة هو وعي الإنسان بالذنب الذي يصيح من أجل مصالحته

مكتبة الفكر الجديد

مع الله. وبما أن الإنسان هو أرض اللقاء مع متطلبات الله الأبدية، فسيعاني من صراعات عديدة مع العالم . لكن مرحلة الصيرورة هي بالأساس نمو داخلي ويجب أن تشعلها الرغبة المحمومة والشعور والخيال غير الموجودين في المسيحية.»

لا يكلُّ كيركيجارد أبداً من التأكيد على هذه الشخصية العاطفية للساعي بطريقة مشابهة تقريباً لتلك التي استخدمها نيتشة فيما بعد. لكن كيركيجارد يكشف أيضاً عن تضاد جديد في بحثه العاطفي هذا: على الإنسان ألاّ يؤكد ذاته، فالنمو أمام الله يعني أن يصبح صغيراً كالأطفال، أو حتى أن يُحتقَر ويُضطهد، وهي تجربة وُجِدَت بحيوية في حياة كيركيجارد القصيرة. والإنسان الذي يؤمن بأنه وجد الله سيشعر رأساً بابتعاده عن الله لأنه يدرك أنه خاطئ أمام الله.

مكتبة الفكر الجديد

13

تبدأ أزمة التجربة عندما يواجه الإنسان العَدَم ويشعر بخوفٍ أو قلق هما بداية اليأس (إما ـ أو ومفهوم الرعب The Concept of Dread). فعلى الإنسان أن يقوم بقفزة عكسية إلى الإيمان، حيث يستلم تأكيداً وجودياً بالله. لقد شن كيركيجارد هجوماته العنيفة الأولى ضد العقلانية بأفكار كهذه تتمسك بها المدرسة الوجودية؛ التفكير اليوم كأساس لإدعائها بأن العقلانية هي خليفتها الروحية.

إن الوجودية الحديثة «تغطي مجموعة خطايا» (ألكسندر درو) وتتدرّج بممثليها الجادين من الإلحاد (هايديجر وسارتر) إلى البروتستنطية الإنجيلية (بارث) وفلسفة كانط (جاسبرز)

مكتبة الفكر الجديد

والوجودية الاشتراكية الكاثوليكية (جابرييل مارسيل) والأرثوذكسية الجديدة (راينهولد نيبور). وعلى الرغم من بعض الاختلافات الأساسية، فإن معارضتهم لأسبقية العقل مؤثرة كتأكيدهم على أزمتنا أو ظرفنا القريب. فجميعهم يركزون على شحن الوجود كما هو معاش؛ إما في رُعب لا يمكن تخفيفه، أو برغبة عاطفية لمشاركة اللانهاية الإلهية. فجميع مظاهر التفكير الوجودي الجادة قد صفعت فلسفتنا العقلية بعنف؛ والأبعاد الجديدة غير المحدودة التي أعطاها العلم الحديث للكون أنتجت نظرة هي «أن كوناً لا نهائياً بحدود لا نهاية لها لا مكان محدد له عند إنسان محدود»، كما صاغ كارل لوبيث ورطة الإنسان الحديث.

كان من الصعب على كيركيجارد القبول بالجملة الأخيرة، لأنه لم يكن ليرضى بالتأكيد الغامض على أن أزمتنا ورُعبنا هما الجوهر أو الكيان للإنسان (هايديجر وسارتر). إن التناقض الظاهري للوجودية الحديثة يكمن في أنها قد أوجدت نُظُم فكر جديدة على الرغم من جهودها لإقناعنا بأن الذهن هو أداة غير كافية لتشكيل نظرة عالمية. أصر كيركيجارد على الاستعلاء إلى مملكة الإيمان بطريقة تشبه تأكيد نيتشة اللاحق على التناقض الداخلي الدائم

مكتبة الفكر الجديد

في الإنسان، كذلك على التوتر بين الزمن والأبدية، والتناقض الظاهري غير المعقول كفصيلة شرعية للحياة. كان اتجاه الصراع مختلفاً في كل حالة، لكن كيركيجارد ونيتشه اجتمعا في طلب الاستعلاء والسمو.

كان على اهتمام كيركيجارد بالكنيسة وبمواجهة الفرد لله أن يصبح في سني حياته الأخيرة عاطفة غامرة. كانت الكنيسة قد أصبحت مؤسسة ثابتة ساكنة ولصيانتها «تُعيِّن الدولة ألف موظف مرضٍ عنهم أو كان قد أُجري لهم اختبار سابق ... وتهلك المسيحية في الثرثرة اللاحقة». إن «مسيحية المغفَّلين الساذجين هذه «هي لا شيء سوى جريمة مسيحية»، تشير إلى الاضمحلال النهائي للكنيسة التي كانت تعني يوماً كنيسة النمو الروحي، أو الصيرورة وهي لهذا تحارب الإكليروس. لم يستطع كيركيجارد أن يعايش جماعة الروح في الكنيسة الحقة التي توقعها من كيان ديني يحمل اسم المسيح؛ فبالنسبة له إن الجماعة الحقة يمكن أن توجد في الأبدي فقط وهو الكنيسة الخفية.

لقد رأينا مدى صلابته تجاه رجال الدين الذين شن هجومه عليهم مباشرة وفي الأساس كان **هجومه على المسيحية**. «غالباً ما

مكتبة الفكر الجديد

يَسمع المرء، وبخاصة من الكهنة، أن الإنسان لا يستطيع العيش من لا شيء. ولكن هؤلاء الكهنة يتمكنون من القيام بهذا بالذات. فالمسيحية غير موجودة، وعلى الرغم من هذا فإنهم يعيشون عليها». تمتلئ كتاباته بمقتطفات كهذه. كان المصطلح «مسيحي» بالنسبة له يُعدّ «جدلي» لكي «يصبح الفرد مسيحياً فقط بمعارضته» للعالم وللآخرين. فحالما يزول هذا التضاد، فإن دعوة المسيحي تفقد هدفها. «وهكذا هي حال «مسيحيتنا» التي ألغت بمكر النصرانية بقولها «نحن جميعاً مسيحيون». لقد فقدت المسيحية حيويتها إذ شاخت. ندعو الإنسان مسيحياً إذا كانت حياته بكاملها تنتمي إلى عوالم أخرى، هو لا يذهب أبداً إلى الكنيسة، ولا يفكّر أبداً بالله، ولا يذكر اسمه «إلا عند القسم». تعترف الدولة بهؤلاء الناس كمسيحيين، «وتدفنهم الدولة كمسيحيين، ويُرسلون إلى الأبدية كمسيحيين». وبمنطق مماثل استخدم كيركيجارد مفهومه للصيرورة، والتطور والصراع عند الفرد المسيحي. يبقى المسيحي دائماً على خطأ أمام الله، لأن «بين الله والإنسان يوجد اللامحدود والاختلاف النوعي متثائباً»، جملة مماثلة لتأكيد كارل بارث المعاصر على «الوجه الآخر» لله. فالإنسان عاجز لكن الله يستطيع إنجاز كل شيء، حتى أن يحوِّلنا إلى الإيمان؛ عظيمة هي النعمة

مكتبة الفكر الجديد

الكامنة في بدء المسيحية الكاملة في الإنسان.

إن طلبات صارمة كهذه مفروضة على الإنسان تتعارض فطرياً مع معظم مظاهر راحة الضمير في تفكيرنا المعاصر. لم يكن كيركيجارد أبداً يستخدم حكمة أيوب من أجل أساليب للرسالة النفسية التي تَعِد بإقلاع سَلِس لأتباع الحاخام ليبمان . إن الشرط الأساسي للمرحلة التي لا تنتهي لكي يصبح الإنسان مسيحياً، حسب رأي كيركيجارد، هو عدم الراحة وعدم إيجاد سلام فكري، وعدم الشعور بالأمن، وبالندم حيث يقف الإنسان خلالها «أمام الله» في عزلة.

لم توجد أبداً كنيسة تم إصلاحها، وكيركيجارد البروتستنطي يهاجم الإصلاح بأسلوب ناقد تماماً كما فعل نيتشه الذي جاء بعده بجيل، ولكن نقد نيتشه جاء من زاوية مختلفة. يجب على الإنسان أن يُصلَح فقط، فالإنسان وحده هو القادر على تحمُّل التقارب الذي يُعزى بكامله خطأً للحركات الإنجيلية. فبالنسبة لكيركيجارد، الله بالأساس ملجأ الخاطئ، وخلاص الخاطئ يكمن خاصة في الحفاظ على إيمانه، عقيدة تتمشى تقريباً مع تبرير لوثر عن طريق الإيمان. فالإنسان الذي يدرك حالة الخطيئة التي يعيشها هو مسيحي لأنه

مكتبة الفكر الجديد

يقيس فضيلته (أو بالأحرى نقصانها) بمعايير مسيحية. لا يوجد لدى غير المؤمن تجربة دينية في تأنيب الضمير؛ إنه غير «موجود» بالمعنى الكيركيجاردي. فوجود الإنسان يعني في الوقت ذاته قربه من الله إضافة إلى الصراع، والتوحُّد والتمزُّق، والتأمل الباطني والسمو. يمتلك المؤمن الحي شعوراً بالحرية يجعله حراً لأن نعمة الله تسمح له بالمُشاركة في الأبدية. إنه لا يشبه رجل سارتر «الحر» والمحكوم عليه بأن يكون حراً، لكنه مُعَظَّم لكي يعيش في حرية كأنها سَعيٌ جريء.

إن تأكيد معظم الوجوديين المحدثين على الرهبة، والخوف، والقلق يختلف عن مفهوم كيركيجارد للمصطلح المتناظر. إن قلقه أخلاقي وروحي. إن الوضع الأصلي للإنسان هو مظهر للبراءة، كما كان وضع آدم عند سقوطه من الجنة، إلاّ أن الإنسان يعي الذنب، أو الخطيئة؛ والقلق، أو الرهبة، في وجود الضعف كظرف دائم. إن دائرة الصراع الأخلاقي والروحي غير آمنة أبداً، لكن لها إمكانات غير أكيدة. تشمل الفضيلة إدراكاً لقوة الخطيئة الكامنة هذه (أو اللاشيء). فالعدميَّة بالنسبة لهايدجر هي ظرف يبحث في علم المخلوقات وحقيقتها، بينما يعتبرها كيركيجارد (وبالصدفة،

مكتبة الفكر الجديد

أيضاً فرويد) ظرفاً نفسياً. إن الحظر على آدم بعدم الأكل من الشجرة المحرَّمة أدى به إلى إيجاد ظرف من القلق لأنه أدرك في أثناء التجربة الانتهاء الكامن «لأبديته». كان الجنس هو الذي أدخل الدنيوي في حياة آدم. فالوجود، إذاً كظرفٍ انتظار أخلاقي وروحي يعني هذه «الشوكة في الجسد». يمكن للإنسان أن يعيش تجربة القُرب من الله في تباين غُربته المحتملة أو الحقيقية عن الله فقط. فمن خلال العذاب النهائي الروحي يمكن الفوز بالإيمان.

فالوجود، من وجهة نظر كيريجارد، هو إذاً حالة من الترقُّب القلق الذي يمكن مقارنته بتجربة المسيح في الجثمانية التي هي مثال نهائي لها. إن «القفزة إلى الإيمان» غير المألوفة ستعطي الإنسان ثقة بالله وثباتاً فيه. فالنقيض للخطيئة ليس الفضيلة، وإنما الإيمان.

مكتبة الفكر الجديد

14

إن المؤمن المثالي متوحد بالضرورة. فتجربته سرِّية، ذاتية، ومع ذلك وبمعنى غامض، هي أيضاً اشتراكية. فعند تعمقنا في هذا الموضوع (خُطَب دينية Relicious Discources ومفهوم الأفراد المختارين ـ Concept Of The Chosen ، نرى كيركيجارد يزيِّن صورة هذا **الفرد الأوحد** The Only one بسجايا فائقة للطبيعة تقريباً. كذلك يتكلّم عنه بمصطلحات مشابهة لتلك التي وظَّفها نيتشة لاحقاً في حديثه عن **الرجل الخارق** ـ Superman المرتقب. يقول كيركيجارد، «سيحتل هذا الإنسان الروحي مرتبة تعلو على الإنسان كما يعلو الإنسان على الحيوان». إنه لم يأتِ بعد؛ ولكن بما أن الزمن والأبدية هما شيء واحد في نظر الله، فهو موجود الآن بطريقة غامضة. إنه فكرة غير محدودة، وتمثِّل تلك الفئة المسيحية

مكتبة الفكر الجديد

الأشد حسماً طريقه الشاهق via eminentia ، لكن يبقى ذلك الفرد الأوحد متنكراً وصامتاً، وحيداً أمام الله، ولا يتميّز بأي صفة خارجية. فكما في الرجل الخارق عند نيتشه، فإن صمت الفرد الأوحد ونُبله لايفترقان؛ فهو يحمي أفكاره ولهذا يبقى قوياً، يقطن في دائرة لا توجد فيها عامة الشعب. ولا تُعرف أهميته إلا بطريقة غير مباشرة، ولسوف يصبح ضحية العالم.

إن تأكيد كيركيجارد على الفرد الأوحد يمثّل مرة أخرى أسلوبه في التواصل غير المباشر، الذي كان سقراط سيداً فيه. فمهارة سقراط في اقتراح تحرير الحق الموجود إلى الأبد من ربقة عقل الإنسان وأخيراً نجاحه في هذا التحرير عن طريق استخدام أسلوب **ولادة الإدراك** ومساهمته في تحطيم الوثنية يمكن أن يقابله هدف كيركيجارد في إثبات أن على الحق أن ينهض من وجود الإنسان الفرد بدلاً من أن يُساوى بتبصُّر فكري فقط. ومثل سقراط، آمن كيركيجارد بأنه كان يعيش في فترة سقوط وانحدار؛ فقد شعر بأن عليه أن «يعيد تعريف العالم النصراني بالمسيحية».

فالحق الأبدي، الموجود في الروح، يجيب أن «يُعاد جمعه أولاً» في عملية تكرار وتواتر، فجوهرياً، لا يوجد تمييز للزمن أو تجزئة

مكتبة الفكر الجديد

له إلى ماضٍ، وحاضر، ومستقبل؛ فالأبدية هي المطلق. وهي دائماً تجربة في الحُكم، لأن الإنسان قد شُكِّل ليرى الدنيوي تحت مظهر الأبدي. فالفرد الأوحد يُنجز هذا. يوحي الجزء الأكبر من مفهوم كيركيجارد **للتكرار** مرة أخرى بمفهوم نيتشه «العَود الأبدي»، لكن الفرد الأوحد عند كيركيجارد لا يتميز عن الرجل الخارق بصراعه من أجل خضوعه أمام وجه الله، وهي صفة يرفضها الرجل الخارق.

لقد كان كيركيجارد مطّلعاً على التناقض الديني المتضمن في مدح كائن أرستقراطي منعزل كهذا، لأنه كتب يقول، «إن سلكتُ مسلك الآخرين أكون خائناً لله، وإن انفصلت عنهم، أكون خائناً لنفسي». فكثيراً ما كان قلبه وعقله منفصلين بين قطبي الحق المتعارضين. ومع ذلك، يتمسك بمتطلبات فكرته الصارمة، التي لا يوجد وئام بينها وبين معظم الناس. فكما حدث في زمن المسيح ينضم عامة الناس إلى مجموعة ما لأن الآخرين قبلهم كانوا قد قاموا بهذا، ويُعترف بالحق بسبب ثقل عدد المساندين له، وليس بسبب خصائصه الذاتية الكامنة كما قال في «الصحيفة ـ Journal».

وعلى الرغم من ذلك، فإن في **هجومه على النصرانية** مديح

مكتبة الفكر الجديد

«للرجل البسيط» الذي يبدو أن كيركجارد يميزه عن رجل الطبقة الوسطى الأفضل وضعاً. هنا نجد بعضاً من احترام ديستويفسكي للعقل الساذج عندما يقول، «إنني لم أفصل حياتي عن حياتك؛ وأنت تعرف ذلك. لقد أمضيت حياتي في الشارع، ولذا فإن الجميع يعرفني. إضافة إلى ذلك، لم أحُز على أية أهمية.... ولذا، فإن كنتُ أنتمي لأي مكان، فلا بد أن أنتمي لك...»

على الرغم من ذلك، كان اقتصار تأكيد كيركيجارد على الفرد الأوحد يعطي انطباعاً بأنه، مثل نيتشه، ينسى رسالة هذا الفرد المستنير الذي ينبغي أن يحثّ روحه على أن تدعو من بين الجماهير تلك القوى التي ستوجد **مملكة الله**. فعلى الفرد الأوحد أن يوصل إرشاد الله إلى رفاقه. إن ارتباطاً كاملاً للإنسان بالله يعني ارتباط محبةٍ مع إخوته من بني البشر. فلا يمكنك أن تهمل التواضع الذي تجد كيركيجارد يتكلم عنه ببلاغة عالية في أماكن أخرى من كتاباته.

مكتبة الفكر الجديد

15

إن وجهة نظر كيركيجارد الناقدة نحو رجل الجماهير تشير، بالطبع، إلى أنه رجل الطبقة الوسطى ذات الثقافة العالية الذي سبق تاريخياً رجل الجماهير عند الطبقة العاملة بنصف قرن تقريباً. فكتاب ماكس ستيرنر المدعو «الفرد الأوحد وخاصته الذاتية ـ The single One and His Own»، الذي نشر عام (1845) كان الصوت الجائع الأول ضمن الأصوات المتزايدة لأولئك الذين كانوا نقاداً لرجل الجماهير هذا. لكن الفرد الأوحد عند ستيرنر كان يُقصد منه أن يكون ثورياً يحارب دماثة الخُلُق وسهولة الانقياد، ولامبالاة الجماهير. فالمفتش العظيم ـ The Qrand Inquisitor عند ديستويفسكي في روايته «الإخوة كارامازوف» التي نُشرت عام (1880) استخدمت رجوع المسيح لتُنذر بالحمل الثقيل للحرية

مكتبة الفكر الجديد

التي يمكن لرجل الجماهير تحمُّله وبأنه متلهف على الانعتاق من هذه الحرية والانقياد كالأطفال. ففي رواية نيتشه «زرادشت» التي نشرت عام (1883) احتقار للجماهير، ومن بينهم رجل الجماهير المثقف، لأن الرجل الخارق The Superman الذي سيتفوّق على تلك الجماهير ويحكمها سيأتي. يمكنك قراءة دراسة جوستاف لوبون النبوية لـ «سيكولوجية الجماهير العريضة ـ Psychology of the Masses» التي نشرت عام (1895) والتي ترجمت بمعنى «الجماهير» الآن وكأنها وثيقة حديثة. فقبل ظهور سياسة احتكار موارد الدولة عند الدول الأوروبية حلل لوبون الشخصية المتقلِّبة التي يتصف بها رجل الجماهير بدقة ، كما تطوَّر تحت حكم موسوليني وهتلر وستالين. فيقال عند موسوليني بأنه كان يحفظ هذا الكتاب عن ظهر قلب، لكن هتلر وجوبلز كانا متمكنين من جوهره بلا شك وذلك بإيحاء من عبقريتيهما الشيطانيتين الشريرتين. إن احتقار أوزولد سبنغلر للجماهير ببرود كبير في كتابه «سقوط الغرب The Decline of the West» الذي نُشر أعوام (1918 - 1921) تمتلئ به صفحات تلو صفحات من كتابه هذا إذ نجد ملاحظات ساخرة جداً تدور حول عدم نضج رجل الجماهير.

مكتبة الفكر الجديد

ورغم أن خوسيه أورتيغا أي غاسيت ـ Jose Ortega Y Gasset يوجّه لرجل الجماهير نقداً بنّاءً وتربوياً، إلاّ أن كتابه «ثورة الجماهير ـ Revolt of the Masses» الذي نشر عام (1930) مُثْقَلٌ هو أيضاً بتخوُّفات مريضة وبملاحظات سليمة حول السطحية غير المتوقعة التي تتصف بها سيكولوجية رجل الجماهير.

لقد اهتم العديد من الكُتّاب بالحرية السياسية والاجتماعية، ذلك العبء المتناقض الذي يصعب حمله، إلا أنّ الحرية الروحية لاتخاذ قرارات دينية وأخلاقية، وهي عبء أثقل، ينبغي لها أن تشحن الطاقات بالرغبة في أن يكون الإنسان حراً سياسياً واجتماعياً. لقد تجاهل كيركيجارد ظروف عصره العلمية والاجتماعية في بحثه عن الحرية الداخلية. فعلى الرغم من أنه قد عاش وكتب في الفترة التي قام فيها كارل ماركس بنشر مؤلفه، «المانيفستو الشيوعي» عام (1848)، لم تستطع اشتراكية كارل ماركس، على ما يبدو، كما لم تستطع الاشتراكية الفرنسية في فترة الثلاثينات من القرن التاسع عشر، أن تترك أي تأثير على تفكيره.

فلو أن كيركيجارد عاش في عصرنا هذا لكان من المؤكد أن يركّز على الجوهر الديني للحيرة التي نعاني منها. إن بحث الحرية

مكتبة الفكر الجديد

السياسية والاجتماعية في عصرنا أصبح بكامله تقريباً قضية فلسفية واستراتيجية سياسية. نحن نواجه خطر نسيان أن التراث المسيحي للحرية الروحية هي المصدر الأكثر إنتاجاً، وذلك في خضم صراعنا ضمن دائرة الإصلاح السياسي والاجتماعي. لقد كتب كيركيجارد قبل مائتي عام تقريباً يقول إن «المسيحية في عصرنا تقترب من أن تصبح كالوثنية. فقد تخلّت منذ مدة طويلة عن النقاط الرئيسة عندها». وكان هو على حقٍ كما كان على خطأ أيضاً في تلك الازدواجية الغريبة التي تحرّك ضمنها معظم تفكيره.

لقد ازداد التوجُّه نحو الوثنية، أو المذهب الدنيوي، إلاّ أن المقاومة الواعية للقوى المسيحية اكتسبت قوة دفع ايضاً. فرأينا الكنيسة كمؤسسة تعاني نقصاً في القوة والنزاهة لمواجهة العداء لها كالذي نراه في التاريخ الأوروبي الحديث. لكننا ندرك أيضاً وبدرجة متزايدة أن لقرارات الإنسان أمام الله أهمية أكبر مما تحاول الجماهير إعطاءها كعوامل سياسية واجتماعية. ومهما اعتقدنا عن الفرد الأوحد عند كيركيجارد وسلوك هذا الفرد أمام الله، نحب أن نؤمن بأن اتصافه بالكرامة الداخلية والولاء هما قوتين نابضتين بالحياة في العديد من الأشخاص اليوم. إن تنحيات عصرنا الفائقة

مكتبة الفكر الجديد

للطبيعة تُنتج تأثيراً نافعاً على العديد من الأشخاص، وهذا التأثير يبتعد عن دائرة الإحصاءات ولا يمكنه أن يتمثل في التأكيدات السياسية للكنيسة والدين المنظَّم.

لكن يجب ألاّ ندع آمالنا تحلّق إلى مرتبة التأكيد. يتسم مزاج باسكال عند قوله، «إننا لن نكون بعد، لكننا نأمل في أن نكون» بنعمة كيركيجاردية ينبغي أن تصبح شعارنا اليوم أيضاً. إن الغزو الروحي للدنيوي هو مطلب الله من زماننا. فالله هو إله الأحياء، ورغبة ريلكه الوجودية بأن يطغى الموت على جميع تفكيره الخلاّق لا ينسجم واهتمام كيركيجارد. فإدراك كيركيجارد لرؤية الأبدية البرّاقة «الحيّة» قد اخترقت جميع دوائر الحياة وتتشابه في نواح عدة مع وجودية جاسبرز Jaspers في كتابه "Existenzerhellung". إنها تعطي للحياة وضوحاً كما أنها تركّز بشدة على ذنبنا وصغارتنا وعدم اكتفائنا كما يركّز النور الكشّاف في ظلمة الليل على المشهد الخفي باشعاعاته البرّاقة. فالخوف والقلق و«الرُعب المقدَّس» عند بيرديف ـ Berdyaev وفي روايات كافكا لدى كيركيجارد تتوازى جميعها في محبة الله لهم، وهذه النعمة غير المستوعبة التي تبجِّل الحياة وتنتزع لها النصر. بالإنصان مذنب، لكنه أعتق من ذنبه أيضاً.

مكتبة الفكر الجديد

ففي عصرنا أصبح موقف كيركيجارد الديني، ذا معنى مختلف إنما مرتبط أيضاً، فهو أزمة الإنسان المعاصر؛ فنجد الإنسان اليوم أقل استعداداً للمجازفة «بالقفز» إلى الإيمان غير المؤكَّد، ولهذا نراه يميل إلى احتضان ذلك التأكيد الذي يُفترض في العقل أو المنطق أو العلم أو العقيدة أن تمد الإنسان به.

جاءت إعادة اكتشاف كيركيجارد في فرنسا على يد هنري دولاكروا عام (1900) وفي ألمانيا في الفترة ذاتها تقريباً حيث قدّمه هناك كريستوف شريمف ـ Christoph Schrempf بحماسة أكبر من تقديمه له نتيجة إعداد متأنٍ سليم فجاء تكثيفاً للأزمة الروحية والفلسفية في أوروبا، كما أنه، بالمثل، قد ألهم علم اللاهوت الصارم لدى كلٍ من كارل بارث Karl Barth وبول تيليش Paul Tillich وكلٌ منهما يتصف بأنه أساساً امتداد لمطلب كيركيجارد باستبدال التدّيُن (أ)، وهو الاعتقاد بأن ملازمة الله هي حاضرة في أي دينٍ صريح، بالتدَّيُن (ب)، وهو بالتخصيص الإيمان المسيحي بالتناقض الظاهري لكون الله قد أصبح إنساناً في المسيح. ففي كلٍ من الفلسفة البارثية والأرثوذكسية الجديدة الأكثر وعياً اجتماعياً نرى محاولةً لنقل الشعور المأساوي للإلحاح والمتضمن في رسالة

مكتبة الفكر الجديد

كيركيجارد لعامة الشعب إلى تأكيدٍ على الاعتقاد بأن الحَدَث الفرد في حياة المسيح على الأرض تُثقل علينا بواجبات لا إيضاح لها وعلى الإنسان المعاصر القيام بها. أما معظم رسائل كيركيجارد فتعالج انجيلية علم اللاهوت غير المقبولة لدى قطاعات واسعة من المسيحيين الجادين. ينقسم مزاج المسيحي المعاصر بين بصيرته العلمية الواسعة الامتداد وحاجته إلى حياة داخلية جديدة يمكن إدراكها إدراكاً عقلياً. فيبدو أن طلب كيركيجارد من الإيمان غير الناقد كمثل إيمان أيوب وإبراهيم يُعتبر قفزة إلى ثقة عمياء، ويُعيد صدى قول وليام جيمز حول «الرغبة في الإيمان»، كما يوجد في قلقه الاجتماعي مؤونة ضئيلة من طاقات روحية مناسبة.

عاد (أو لا زال) مؤلف كيركيجارد «إما-أو» معضلتنا، فتوبيخه لنا على أننا نحن أعداء المسيحية الحقيقيين وليس الهراطقة لأننا المرتدون عن العقيدة، الصامتون الذين تُعدّ لنهاية المسيحية. نجد هذا اليوم أصدق بكثير مما كان زمن كيركيجارد. يعتبر كيركيجارد مقارنتنا لهرطقة روسيا «بمسيحية» العالم الغربي جزءاً من استراتيجية عظمى من الخداع «المسيحي»، أو ربما يدعوها سلوكاً منافقاً جداً. فبالنسبة له، يجب ألا يوجد تمييز بين المسيح والمسيح

مكتبة الفكر الجديد

الدجَّال بينما تصر قطاعات واسعة من المسيحيين على البقاء دوماً في حيّز الغَسَق من الاحترام المسيحي اللامبالي. فاللامبالاة، بشهادة المسيح، اسوأ من الخطيئة، وفي عصرنا هذا صاغ نيقولا بيرداييف جملة قائلة إن «الصلاح المتوسط لم يعد كافياً».

فلا عجب إذاً إنْ جاءت النبؤة بتدهور الحضارة الأوروبية الساحق بعد مضي ثلاثين عاماً على حياة كيركيجارد وبأسلوب حماسي مختلف عند نيتشه الذي كانت عبادته للحياة وهروبه الوثني إلى العصور الكلاسيكية القديمة قد وضع في أيدي الطبقة الوسطى الراضية عن ذاتها منطقاً جدلياً مناسباً بأنه هو أيضاً ساذج لا يستحق أن يعيره أي اهتمام جاد. يعمل هذا البرود ذاته ثانية في عصرنا على التقليل من الأهمية العَرَضية للوجودية المعاصرة.

مكتبة الفكر الجديد

16

هل نسي كيركيجارد رحمة الله عليه وغفرانه ؟ وهل أكّد بتحيُّز على الذنب والخطيئة وعلى ابتعاد الله عن الإنسان؟

الآن سندع التأثير الكلي لمواعظه العديدة التي تؤكد على محبة الله يجيب على تساؤلاتنا بكلمة «لا» بشكل واضح. كان وضع المسيحية يتطلب من كيركيجارد أن يصرخ، كما صرخ ذات مرة في وجه رئيس شركة للإطفاء وسط لهيب اللامبالاة، والجبن، والشر وعدم التصديق الصريح.

إن كيركيجارد هو الحاج إلى المطلق. وكان تأكيده الهسيتيري تقريباً في رسالته تأثير مرعب كمواعظ سافوناولا في فلورنسا في القرن الخامس عشر.

«تتكلم عنا وكأننا سنذهب جميعاً إلى جهنم إلا أنت، لأنك

مكتبة الفكر الجديد

ستُخلَّص،» هذا ما قاله الأسقف مارتينسون لكيركيجارد، لكن كيركيجارد كتب يقول بأن في المحيط الديني «يُعرف الإيجابي عن طريق السلبي...» وأن عزاءه للباحث بلا أمل هو في قوله، «لا يحتاج من يحب الله إلى دموع ولا إلى كلمات إعجاب. إنه ينسى معاناته في الحب، ينساها بكاملها لدرجة أنه لا توجد لديه فكرة ولو ضئيلة عن آلامه لو لم يتذكرها الله. هو يرى الخفي ويعرف العذاب، يحصي الدموع ولا ينسى شيئاً.»

مكتبة الفكر الجديد

ويليام هُبين

كيركيجارد

«الحق قـوة، لكننا لا نراه هكذا إلاّ في حـالات نادرة لأنه حق: يتألم دائماً ويجب أن يُهزم طالما هو حق. أمـا عندمـا ينتـصـر هذا الحق فنرى الآخرين ينصتون إليه. لماذا؟ ألأنه حق؟ لا، فلو كان لهذا السبب لانضموا إليه عندما كان يتألم أيضـاً. ولهـذا فـإن عـدم انضـمـامـهم إلـيـه ليس للقوة التي يمتلكها؛ إنهم ينضـمـون إليـه بعـد أن يصبح قوة لأن الآخـرين يكونون قد سـبقـوهم لذلك.»

أزمنة

تلفاكس 5522544 6 00962 ص. ب 950252 عمّان 11195 الأردن

مكتبة الفكر الجديد